الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص أدب عربي

المـــــوضـــوع:

إيليا أبو ماضي شعر التفاؤل

دراسة نفسية

إعداد الطالب (ة) :
نباتي أمينة

إشـــراف:
د/ العرابي لخضر

لجنة المناقشة		
أ.ت.ع	دكار أحمد	رئيسا
أ.د	العرابي لخضر	مشرفا ومقررا
أ.م	قدوسي نور الدين	مناقشا

العام الجامعي: 1438-1439هـ/ 2016-2017م

العام الجامعي : 1438- 1439هـ/ 2016-2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

نحمد الله و نشكره على نعمة العقل و الصحة و التوفيق التي لا تكون إلا منه، و أتقدم بالشكر و التقدير إلى الدكتور المشرف العرابي لخضر على نصائحه القيمة و توجيهاته الحكيمة التي أنارت لي دروب هذا البحث، و إلى كل أعضاء لجنة المناقشة الذين تكرموا بقراءة هذا البحث المتواضع و إثرائه بملاحظاتهم و تقويمهم بتوجيهاتهم وإلى كل من ساهم من قريب و بعيد في إنجاز هذا العمل و لو بكلمة

الإهداء:

اللهم لك الحمد اللهم صلي على سيدنا محمد ،عليه أزكى

الصلاة أهدي هذا العمل المتواضع إلى:

أغلى ما عندي في الوجود "أمي الغالية"

و إلى من أعيش معه أحلى الكلمات

"أبي العزيز"

إلى إخوتي و أختي إلى زملائي و زميلاتي

و إلى كل من عرفتهم طوال مشوار حياتي

نبّاني أمينة

مقدمة

مقدمة :

بسم اللّه الرّحمان الرّحيم، والصّلاة والسّلام على الرّحمة المهداة و النعمة المسداة، صلّى عليك اللّه يا عَلَم الهدى ما ناحت على الأيك الحمائم صلاة تخرجنا بها من ظلمات الوهم وتوضّح بها عنّا ما أشكل حتّى يفهم إنّك تعلم و لا نعلم، و أنت علّام الغيوب وبعد:

فقد احتل أدب المهجر مكانة مرموقة في تاريخ الأدب العربي عموما و الأدب الحديث على وجه الخصوص. فالبرغم من أنّه قد نشأ في بيئة خاصة إلّا أنّه يعد من الركائز المتينة الّتي يستند عليها الأدب العربي الحديث، وذلك لما يحتويه مفاهيم و دعوات جديدة لشعراء كتبوا أسمائهم بأحرف من ذهب.

ومن بين هؤلاء المهجريين نجد الشاعر الفذّ إيليا أبو ماضي الّذي لا يشق له غبار، هذا ما لمسته من خلال أشعاره، و تلك الدعوات التفاؤلية الّتي انبثقت عن قصائده الشعرية. لرسم مجتمع فاضل يسوده التفاؤل و الإقبال على الحياة بوجه طلق.

وبعد الاضطلاع على بعض مؤلّفاته أيقنت أنّه شاعر يستحق التقدير و الوقوف على بعض أعماله. من خلال تمجيده لظاهرة "التفاؤل" لذا أحببت أن تقوم دراستي حولها. محاولًا كشف اللّثام عن هذه الظّاهرة في أشعاره.

وقد اعتمدت في دراستي هذه على العديد من المصادر والمراجع ذات الصّلة بالموضوع كتلك " الدراسات الّتي قام بها عيسى النّاعوري" في كتابيه" إيليا أبو ماضي رسول الشّعر العربي الحديث" و "أدب المهجر" و جورج صيدح في كتابه "أدبنا و أدباء في المهاجر الأمريكية"،.....وغيرهم.

أمّا من حيث المناهج المتّبعة في هذه الدّراسة فهما المنهج التّاريخي و المنهج التحليلي، فمن حيث المنهج الأول تَطرّقت إلى تاريخ الشّاعر و مولده و معظم الأحداث الّتي تتعلّق بحياته، و ما يحيط بدعواته من أسباب و مؤثّرات، و نتائج .

أمّا المنهج التّحليلي فقد تطرّقت له من خلال دراسة "قصيدة المساء" من جوانبها الأدبية، البلاغية و الصّوتية.

و هذه الدراسة تشتمل على ثلاثة فصول، و كل فصل يحتوي على مباحث كالآتي:

الفصل الأول: إيليا أبو ماضي و المهجر: وبه ثلاثة مباحث.

المبحث الأوّل: أدب المهجر و موضوعاته

المبحث الثاني: نظرة عامة عن حياة الشاعر

المبحث الثالث: العوامل المؤثّرة في شعره:

أ-الطبيعة

ب-الرومانسية

الفصل الثاني: التفاؤل في شعر إيليا أبو ماضي: وبه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن التفاؤل

المبحث الثاني: النزعة التفاؤلية عند إيليا أبو ماضي

المبحث الثالث: نماذج من شعره التفاؤلي

الفصل الثالث: دراسة نفسية لقصيدة "المساء" و يحتوي على:

المبحث الأول: قصيدة المساء

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية:

أ-الدراسة الأدبية

ب-الدراسة البلاغية

ج-الدراسة الصّوتية

و في الأخير أتمنّى من اللّه العلي القدير أن يوفقني في هذه الدّراسة و يحقق ما أصبو إليه فإنّه نعم المولى و نعم النّصير، و هو على ذلك لقدير.

نبّاتي أمينة

2017/04/30

تلمسان.

الفصل الأول :

إيليا أبو ماضي و المهجر:

المبحث الأول: أدب المهجر و موضوعاته.

المبحث الثاني: نظرة عامة عن حياة الشّاعر إيليا أبو ماضي

المبحث الثالث: العوامل المؤثرة في شعره:

1-الطّبيـعة.

2-الرومـانسية.

الفصل الأول: إيليا أبو ماضي والمهجر:

المبحث الأول: أدب المهجر و موضوعاته

منذ القرن التاسع عشر شرعت تنزح إلى بلاد كولومبوس جماعات من أبناء البلاد العربية و لا سيما من لبنان و سوريا، بعضها هَرَبًا من جور الأتراك و بعضها طلبا للرزق، وبين تلك الجماعات المهاجرة كانت طائفة من الشباب الّذين تتوفّد بين جوانحهم قلوب متوثّبة للحرّية و في رؤوسهم آفاق رحاب من الفكر النّيّر و الخيال الخصيب. أولئك كانوا من الرّعيل المثقّف الواعي الذي عزّ عليه أن يعيش أسيرًا للظلم و الفوز، فانطلق يبحث عن الحرّية [1]." و مهما اختلفت الأسباب إلا أننا نجد البحث عن الحرية و الديموقراطية و تحسين الأوضاع الاقتصادية تلخص لنا الأسباب الرئيسية لتلك الهجرات"[2].

و ما يهمنا هنا أنّ بين جموع أولئك المهاجرين كانت مجموعة من الأدباء و الشعراء و المثقفين الذين كانوا ينظرون إلى الحياة الإنسانية نظرة مختلفة. باعتبارهم أرهف حسًّا، فهجرتهم لم تكن عن طيب خاطر بل لضغوطات جعلتهم يبتعدون عن بلادهم الّتي نشأوا فيها. هذا ما نجده متمثلا في قول الشاعر القروي سليم الخوري:

وَ لَوْ خُيِّرْتُ لَمْ أَهْجُر البِلاَدَ وَلَكِنْ لَيْسَ فِي العَيْشِ اخْتِيَارْ[3].

فسعوا لنشر معاني الإنسانية المتمثلة في المبادئ السامية و المثل العليا و عملوا على تحقيق الشّقاء الإنساني، فسمت أرواحهم، وكبرت غياتهم و أصبح الشعور بقومهم و إخوتهم عماد أدبهم، يقول ميخائيل نعيمة:" أدركت يا أخي أنني ما خطوت خطوة في حياتي إلا كانت يدك في يدي

[1] عيسى الناعوري- أدب المهجر- دار المعارف ط 3 ص 15.

[2] نادرة جميل سراج :دراسات في شعر المهجر لشعراء الرابطة القلمية مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف بمصر 1964

[3] البيت للشاعر القروي : أنظر عيسى الناعوري- أدب المهجر- ط 3 ص 76.

و ساعدك إلى ساعدي، وكتفك إلى كتفي، و إنني حُييْت لا بما فيّ وحدي من حياة بل بما فيك و فيّ من حياة"[1].

بدأ هؤلاء الشعراء ممارسة حياتهم، وكان انطلاق كل منهم من خلال مدارس أدبية و روابط منها الرابطة القلمية في المهجر الشمالي و العصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي. و لنركّز على الرابطة القلمية التي ينتمي إليها الشاعر أبو ماضي حيث نجدها تتميّز بالتّأمل في الحياة و أسرار الوجود، و التعمق في فهم النفس البشرية و التعلق بالوطن [2]. وبذلك كان لها الفضل الأكبر في نشر مذهب المهاجرين. يقول الدكتور محمد حسن هيكل:" يجب أن يتعاون المجدّ و المقلّد منّا و إلاّ بقي الفوز في جانب السوريين المتمّرنين"[3].

وقد عملت هذه المجموعة على أداء رسالتها الأدبية على أكمل وجه و صدرت مؤلّفاتهم الأدبية الرائعة التي أبرزت أثر الأدب و أبعاده على الحياة الإنسانية باعتباره أدب صادر من نفوس صادقة عانت الويلات من عدم عدل و فقر وهجرة....

و لفهم أدب المهجر بأبعاده و أثاره لا بد لنا من أن نتطرق- من غير تفصيل- لموضوعات هذا الأدب. لأن مدرسة المهجر عندما ظهرت إلى الوجود في الميدان الأدبي ظهرت بخصائص و عناصر جديدة، فعملت على تحرير إنتاجها الأدب من قيود الألفاظ و جعلته أدبًا قويًّا يستمدّ قوّته من الحياة التي يعيشونها ليعبّروا عنها تعبيرًا صادقًا و دقيقًا.

كما جعل أدباء المهجر لواء التحديد و التحرر من قيود القديم فأوجدوا في الأدب كله جديد حتّى أحبّه النّاس و أعجبوا به إعجاب. و من أهمّ الموضوعات التي تميّزت بها مدرسة المهجر نجد:

[1] ميخائيل نعيمة: صوت العالم، فصل أخوة غرباء، ط 8 مؤسسة نوفل، بيروت لبنان ص76.

[2] عبد الرحمان شيبان: المختار في الأدب و النصوص و النقد و التراجم الأدبية، مصلحة الطباعة المعهد التربوي الوطني ط 1974 ص 372.

[3] زهير مرزا: إيليا أبو ماضي، ط 2 دار اليقظة العربية.

1-**الحنين إلى الوطن**: الغربة تثير نوازع الشوق في قلوب المغتربين و قد ترك أبو ماضي مثلا بلاده، و ذكريات طفولته فكان دائم الحنين إليها يقول:

مِثْلَمَا يَكْمُنُ اللُّظَى فِي الرَّمَادْ هَكَذَا الحُبُّ كَامِنٌ فِي فؤَادِي

لَسْتُ مُغْرَى بِشَادِنٍ أَوْ شَادِي أنَا حُبٌّ مُتَيَّمٌ ببلادي[1]

2- **التّفاؤل**: ودع الشعراء موطنهم يائسين من صلاح أهله و حكومته، و بعد أن استوطنوا أرض الغربة رأوا الدنيا تتبدل أمام أعينهم، أخدوا يصارعون اليأس و استطاعوا التّغلّب عليه بتقبّل الأحداث و الهموم لأن التّفاؤل يدفع إلى العمل و العمل يحقق الآمال، فإذا ابتسم الإنسان رأى الدنيا تبتسم من حوله.

3- **النزعة الإنسانية**: فالشّعر في نظرهم رسالة عليا هي الدعوة إلى الحق و الخير و الجمال. و على الشاعر أن يتأمّل ما في الكون و قد رأينا في قصيدة "الحجر الصغير" لأبو ماضي تصويرًا لقيمة الفرد في المجتمع و حاجة النّاس إليه مهما كان عمله و قيمته.

4- **النّزعة التّأمّلية**: منذ قديم الزّمان حاول الفلاسفة و الحكماء أن يخترقوا بنظراتهم و تفكيرهم حب هذا الوجود الضّيق ليلحقوا في آفاق بعيدة، و أبو ماضي و رفاقه المهجريين أضافوا ثروة فكرية إلى الشعر العربي الحديث بهذه النزعة التّأملية. فكتب أبو ماضي قصيدة " الطلاسم"، كما تحدث عن الموت و مصير الروح بعد مفارقتها الجسد.

وقد تكون هناك موضوعات أخرى منها: الغزل- الحكمة- النزعة القومية- الشعر الاجتماعي- المرأة- الطبيعة. غير أنّ الموضوعات السابقة تعتبر أهم تلك العناصر و أوضحها. و أكثرها أثرًا و تجديدًا على الأدب العربي.

[1] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة "يا بلادي"، دار الفكر العربي، ط 1 ص 135.

المبحث الثاني: نبذة عن حياة الشاعر إيليا أبو ماضي

حيـاتـه:

ولد إيليا أبو ماضي في سنة 1889 بقرية المحيدثة، وهي قرية لبنانية تقع قرب بكفيّا، وقد حبى الله هذه القرية بإمكانات طبيعية نادرة، وجمال أخّاد يعيش أهلها في سلام في ظل عطاء الحور و الصّفصاف الّتي حوّلت الجبال بصخورها النّاشئة إلى أرض غنّاء[1].

و عاشت أسرته على مدخول ضعيف مصدره تربية دودة القز، ترعرع أبو ماضي بين أحضان أسرته المتواضعة، وقد كان يرافق والده إلى عمله، يمتّع عينيه بجمال الطبيعة المشرقة شمسها في أيام الصّحو، و السّاطع قمرها في ليالي الدّفء و الصّفاء فيختزن داخل مشاعره ما يوحي له ذلك الجمال من بهجة و انشراح[2]. و لعلّ ذلك كان سببًا في بروز النزعة الرومانسية في شعره، تجلّى في استلهامه الطبيعة في شعره إلى حدّ أن يتّخذ من مظاهر الطبيعة عناوين لدواوينه و العديد من قصائده[3].

عاش أبو ماضي حياة عادية، حيث تزوّج ورزق بثلاثة ذكور. لم يكن أبو ماضي في أخريات حياته سعيدًا، حيث عانى ضيقًا و ألمًا سببه فقدان كوكبة من أدباء المهجر، وعمدت فئة من المتطفّلين على الأدب إلى تشويه صورة هؤلاء، و هو ما فاقم حزن أبي ماضي إلى حد التّفكير في الاعتزال لولا مواساة زملائه الّذين كانوا يرفعون من معنوياته من حين إلى حين. لكن المرض اشتد عليه و عاودته الأحزان فانقطع عن العمل ولزم بيته إلى أن وافته المنيّة في الثالث و العشرين من شهر تشرين الثاني(نوفمبر) 1957م[4].

---

[1] عبد المجيد الحر: إيليا أبو ماضي باعث الأمل و مفجر ينابيع التّفاؤل، دار الفكر العربي، ط1، 1995 ص 40.

[2] المرجع نفسه ص 41.

[3] ومن ذلك انه سمّى ديوانين أحدهما الجداول، صدر سنة 1927، و الآخر الخمائل صدر سنة 1940،من أمثلة ذلك المساء–الغابة المفقودة–البلبل....

[4] عيسى الناعوري: أدب المهجر، ص 371.

المبحث الثالث: العوامل المؤثرة في شعره

اجتمعت عوامل عدة في تكوين شخصية أبو ماضي ساعدته على النبوغ في مجال الشعر منها:

أ- **الطبيعة:** كان إيليا أبو ماضي من أكثر الشعراء حبًّا للطبيعة، وقد انعكس جمالها على جمال نفسه و صفاء سمائها على صفاء ألحانه، و انعكست عذوبة مائها على عذوبة ألفاظه و دقة نواميسها في دقة ملاحظاتها، و كأن الطبيعة شعرت بصدق حبه لها فباحت له بأسرار سحرها، فمنذ قديم الزّمان يتمتعون بالطبيعة و جمالها، لكن أبا ماضي له موقف خاص من الطبيعة، فقد كان أكثر النّاس اعتقادًا بالمساواة بين الناس فهو دائمًا يتكلّم عن الإنسان بكونه من ماء و طين سواء في ذلك الغني و الفقير.

و في قصيدة "تأمّلات" يستلهم من الطبيعة أفكاره و ينقل عنها آراءه فيقول:

وَلَقَدْ نَظَرْتُ إلَى الحَمَائِمِ فِي الرِبَى فَعَجِبْتُ مِنْ حَالِ الأَنَامِ وَ حَالِهَا

لِلشَّوْكِ حَظُّ الوَرْدِ مِنْ تَعْرِدِهَا وَ شَرِكُهُ مِنْ بَعْدُ إِعْوَالِهَا[1].

و ينبغي بأن لا نعجب من كثرة تأمل أبي ماضي لمظاهر الطّبيعة و محاكاته إيّاها. فمعظم أفكاره و آراءه بثها في ديوانه "الخمائل" بل و نجد أنّ شاعرنا إذا افتقد الطبيعة، لم يجدها خلق الطبيعة في ذهنه ليشاركها ما يريد من إحساساته و ما يختلج في صدره، و بالتالي يستطيع أن ينظر إلى ذلك الحقل المريع في ذهنه قائلاً:

إِذَا أَنَا لَمْ أَجِدْ حَقْلًا مُرِيعًا خَلَقْتُ الحَقْلَ فِي رُوحِي وَ ذِهْنِي

فَكَادَتْ تَمْلَأُ الأَثْمَارُ كَفِّي وَ يَعْبَقُ بِالشَّذَى الفَوَّاحُ رُدَّنِي[2].

[1] إيليا أبو ماضي :الديوان: قصيدة "تأملات" دار الفكر العربي، ط 1 ص 311

[2] إيليا أبو ماضي: ديوان الخمائل، قصيدة "و قائله" دار كاتب و كتاب ط 1988،ص253

فأبو ماضي هو ابن الطبيعة و أحد عشّاقها الأوفياء إذ يرى كل ما في الطبيعة أشياء حية، و بالتالي سعى على أن يستمد وحيه و إلهامه من صمام الطبيعة الصريحة الّتي لا تعرف خداعاً و لا غشّاً، فتجده يخرج إلى الطبيعة قائلاً:

قَالَتْ أُخْرُجْ مِنَ المدِينَةِ لِلْفَقْرِ فَفِيهِ النّجَاةُ مَنْ أَوْصَابِي[1].

بالإضافة إلى أنّها تنجيه من مشاكله، و مصائب الدهر، فهو يغرق في الطبيعة إلى أذنيه ليقضي فيها أحلى ساعات العمر، فقد رأيناه يهرع إلى القفر عندما ضاق صدره بسرٍّ هائل، فلم يجد غير الغاب يذهب إليه في جنح اللّيل ليدفن ذلك السّر فيستريح صدره و يتسع من ذلك الضيق، يقول:

لَمْ يَسْعَ سِرّي فُؤَادِي لَمْ تَسْعَ نَفْسِي المغَانِي

فَقَصَدْتُ الغَابَ وَحْدِي وَ الدُّجَى مَلْقى الجِيرَانْ

وَدَفَنْتُ السِّرَّ فِيهِ مِثْلَمَا يُدْفَنُ جَانْ[2].

ولعلّنا من خلال هذه الأبيات السابقة نستطيع أن نتعرّف على الحياة الّتي أرادها أبو ماضي في القفر و ذلك بأسلوب يجعلنا نشعر بجمال الطبيعة و الإعجاب بها و بمناظرها. ونجد أنّه من شدّ حبّه للطبيعة، و لعمق شعوره بها يناجي كل ما فيها من نبات و حيوان و طير و جماد على أنّها مخلوقات حيّة تحسّ و تسمع، و بالتّالي يستطيع أن يبثّ أحاسيسه و يكسب على مسامعا آماله و آلامه، "فكل هذا الإبداع في الشعر إنّما يحسّه و يستمدّه من الطبيعة لأنّ الإحساس هو الّذي يسمو بمادّة الشعر و يزوّده بعناصر التّأثير و النّفود ليستطيع أن ينقل لنا إحساس الشّاعر بإحساس الطبيعة"[3].

و بالتّالي هو يحب الغاب و لا يتمنّى زواله ما فيه من روعة و براءة، حيث أنّ الوضع الرّائع للطّبيعة يجعلنا نمتلئ شعورًا بأنّها فيها مثل ما فينا من حياة و أنّنا جزء لا نتجزّأ منها، ونجد تارة

[1] إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، قصيدة "في القفر" دار كاتب و كتاب ط1988، ص 48

[2] المرجع السابق: قصيدة "زهرة الأقحوان" ص 67.

[3] عيسى الناعوري: إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث، دار الطباعة و النشر، ط 1،ص 63.

أخرى يصف الشمس و الزّهر، و العطر و الألحان، و تارةً يشارك مكونات الطبيعة أفراحها بأمر الحب.

و هكذا نجد الشّاعر شديد الاتّصال، و بكل ما فيها، و هي تكشف له عن أنواع و فنون جديدة من الجمال و السحر و الإبداع فتغذّي خياله بشتّى صنوف الشعر و الموسيقى، والإلهام فكل ما فيها كائنات حيّة صادقة في التّعبير عن أحاسيسها و بالتّالي يلجأ لها متى ما شعر باليأس و التّشاؤم ليعيش في دنيا مشرقة بالجمال.

و يوضح العقاد كيف يتّصل بالطبيعة، ويتفاعل معها سفوره و إحساسه فيقول: "فإذا اتّجه الشّاعر العظيم إلى الطبيعة فهو الّذي يسمعك الخليقة الأولى منقولة في لفظ، والسماوات و الأرض منظومة في لحن، و بيتك من هذه الدنيا الإلهية نبضات أغوارها و ما توسوس به...يستوعب ذلك كلّه ألغازًا مبهمة، ثـمَّ يرسله من خاطره المتوهّج الصهّار أرواحًا هائمة، و شياطين حائمة و معاني يمتلئ بها جوّ هذه الدّنيا لإلهام كلّ ما في معجم الطّبيعة من الكلمات و الرّموز و كلّ ما يجري على لسانها الملغّز من الأسماء و الحروف"[1].

إذا ليس القصد من ذكر الطبيعة هو وصف مظاهرها وصفًا بسيطًا و مباشرًا فذلك يطيقه كلّ إنسان عرف كيف يزن الكلام و امتلك القدرة على التّعبير، و لا ذكر ألوانها لأنّ ذلك لا يضيف شيئًا إلى الحياة، و إنّما الشاعر الحق هو من يتعامل مع مظاهر الطبيعة كما لو كانت نفوسًا حيّة تفهم عنه، و يفهم عنها فينظمها في شعره بكلمات الحب و العطف و الدّلال و ما إليها من العواطف و المشاعر الإنسانية.

و هكذا فالطبيعة في شعر إيليا أبو ماضي خاصّة و الأدب المهجري عمومًا حيويّة عاقلة يُحْسِنُ بضربات فؤادها، و يسمع رخيم انشادها و يلد له التّحدّث إلى أنهارها و غاباتها و جبالها و ما إليها.

[1] محمد مصايف: جماعة الدّيوان في النقد، مطبعة البحث قسنطينة 1974، ص 17.

و في الخريف يرى إيليا أبو ماضي فراشة وقد دنا أجلها فيجعلها موضوعًا لقصيدته " الفراشة المحتضرة"[1] يقول:

فَالزَّهْرُ فِي الحَقْلِ أَشْلَاءُ مُبَعْثَرَةٌ وَ الطَّيْرُ لَا طَائِرَ إِلَّا جَنَاحَاكْ

يَا رَوْضَةَ فِي سَمَاءِ الأَرْضِ طَائِرَةٌ وَ طَائِرًا كَالأَقَاحِي ذَا شِذَاذَاكْ

مَضَى مَعَ الصَّيْفِ عَهْدُ كُنْتُ لَاهِيَةٌ وَ لِلْأَزْهَارِ مِنَ الأَحْتلَامِ ضَحّا كْ

تُمْسِينَ عِنْدَ مَجَارِي المَاءِ نائِمةٌ وَ لِلْأَزْهَارِ وَ الأَعْشَابِ مَغْدَاكْ

يَا نَغْمَةَ تَتَلَاشَى كُلّما بَعُدَتْ إِنْ غِبْتِ عَنْ مَسْمَعِي مَا غَابَ مَعْنَاكْ[2]

ثمّ نجد نفسه تهيم أكثر فيطيعها و يذهب معها إلى الغاب و يمرح في ظلال أشجاره الوارقة، و على ضفاف أنهاره، فهناك كان يجد نفسه مستقل و طليق كأنّه أدب في سرداب، و يقضي و قتًا جميلًا من أسعد الأوقات و كأنّه يناجي الطبيعة بكلّ ما فيها من نبات و حيوان و طير يقول:

لِلّهِ فِي الغَابَةِ أَيّامُنَا مَا عَابَهَا إِلَّا تَلَاشِيهَا

طَوْرًا عَلَيْنَا طَلَّ أَدْوَحِهَا وَ تَارَةً عَطْفَ دَوَالِيهَا

وَ تَارَةً نَلْهُو بِأَعْنَابِهَا وَ تَارَةً نَحْصِي أَقَاحِيهَا[3].

و بتمسكه بالطبيعة كان يعيش دائمًا في دنيا من الشموس و الزّهر و العطر يقول عن ذلك:

تَعَالَيْ نَطْلِقُ الرُّوحَيْنِ مِنْ سِجْنِ التَّقْلِيدْ

فَهَذِهِ زَهْرَةُ الوَادِي تُذيعُ العِطْرَ فِي الوَادِي

[1] أنيس الخوري المقدسي: الاتّجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط 6، دار العلم للملا يين، ص 358.

[2] إيليا أبو ماضي ديوان: قصيدة " الفراشة المحتضرة"، ص 278.

[3] ديوان الخمائل: قصيدة "الغابة المفقودة"، ص 156.

فَهَذِا الطّيْرُ تَيّاهٌ فَخُورٌ بالأَغارِيدْ

فَمَنْ ذَا عُنْقِ الزَّهْرَةِ أوْ مَنْ وَبّخَ الشّادِي[1].

و قد تأثّر أيضًا بالبحر، فقد تفاعلت نفسه معه واستمر في مقارناته بين أحوال البحر وصفاته وبين نفسه و صفاته في قوله[2]:

إِنَّنِي يَا بَحْرُ بَحْرٌ شَاطِئَاهُ شَاطِئًا كَا

الغَدُ المِجْهُولِ و الأمْسُ اللَّذَانِ اكْتَنَفَا كَا

وَ كِلَانَا صَائِرٌ يَا بَحْرٌ فِي هَذَا وَ ذَا كَا

لَا تَسَلْنِي مَا غَدٌ مَا أمسَ، إنّي

لَسْتُ أَدْرِي؟؟[3].

و نمضي مع أبي ماضي في ديوان الجداول الّذي نشره في سنة 1927م فنجد فنجد هذه الفلسفة الّتي بثّها في ديوانه الأوّل مبثوثة في غير قصيدة، و هو يذيع معها استسلامًا للمقادير، مع الأفكار لكل ما يقال عن الغد المجهول و لعلّ خير قصيدة تصوّر ذلك، في قصيدة "بردي يا سحب" و فيها يقول:[4].

رَضِيَتْ نَفْسِي بِقِسْمَتِهَا فَلْيُوَارِدْ غَيْرُى الشُّهُبَا

مَا غَدٌ يَا مَنْ يُصَوِّرُهُ لِيَ شَيْئًا رَائِعًا عَجَبَا

[1] ديوان الجداول: قصيدة "تعالي"، ص 30.

[2] شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف بمصر، ط 3، ص 184.

[3] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة " البحر"، ص 99.

[4] شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي، ص 185.

أَنَا مِنْ قَوْمٍ إِذَا حَزَنُوا وَ جَدُوا فِي حُزْنِهِمْ طَرَبَا[1].

وفي ديوانه الخمائل الّذي نشر في سنة 1942م فالدنيا من حوله زاهية مشرقة إن ادلهمت لا بدّ أن تضيئ، هذا التّفاؤل الّذي يجري في شعره تنفد فيه من حين إلى حين لحظات حيرة و قلق، فهو لا يتفاءل في الحياة عن غير بصيرة و فهم بل هو يفكر فيها، وفيما يلوّن بعض جوانبها من سواد، كما أنّه لم يكن فارغًا من القلق و الحيرة، و اقتران تفاؤله بهذا الإحساس هو الّذي أعطاه حدّته و توجّهه و هكذا تأثّر شاعرنا بالمدرسة الرومنسية الأوروبية و أصبح ينظر إلى الطبيعة نظرة روحية حيّة، فيتحدّث إليها، و يرى فيها مصدرًا غنيًّا بالمعاني الخالدة.

ب- **الرومانسية:**

بدأت الرومانسية العربية في زمن مبكّر على يد المهجريين متمثلة في حبّهم الشّديد إلى وطنهم، و قد تأثّر أبو ماضي بالنزعة الرومانسية الّتي تجدّرت في شعراء الرابطة القلمية، فتفاؤله اصطدم بإحساسهم العميق، و تفكيرهم بآلام الحياة الإنسانية، و التّأمّل في الطّبيعة و لكونه لم يسر بهذه المقوّمات إلى نهاية الدّرب، فلم تراوده عاصفة التّشاؤم الشّديد الّتي عصفت في قلب جبران و رفاقه بل كان مبتهج النّفس تلمع أقواس التّفاؤل دائمًا في سماء وجدانه[2].

فعلًا كان شاعرًا متميّزًا،" فهو لا تهمّه المادة و الشكل بقدر اهتمامه بالروح و الجوهر" [3]. و بقدر من العزم و الحزم غاص و تعمق في النهج و مبادئ الرومانسية فكتب مطولة " الطلاسم" الّذي تناول فيها ألغاز الوجود الّتي وقف حائرًا أمامها نتيجة ظروفه الخاصة الّتي عاشها في مهجر، و بالتّالي بانت تجربته أدنى إلى الشعر التعليمي و التساؤل الفلسفي المبسط منها إلى الرومانسية[4].

[1] إيليا أبو ماضي- ديوان- قصيدة "بردي يا سحب"، ص 89.

[2] شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي، ص 182.

[3] نادرة جميل سراج: دراسات في شعر المهجر شعراء الرابطة القلمية، ص 125.

[4] إيليا الحاوي: الرومانسية في الشّعر الغربي و العربي دار الثقافة ط 2، ص 156.

واستطاع برومنسيته أن يقف موقفًا موضوعيًّا يسمح له بالجلوس في صفوف الجماهير المتطلّعة إلى الحوار المبتكر الّذي يفتعله بعناصر درامية، تذوب آهاتها و تنصهر في شكل زاوية تقوّي مدلولها في قلوب النّاظرين و السّامعين، وفي قصيدته الكافية "الكأس الباقية" يناسب التّعاطف الرومانسي رقيقًا شفّافًا، في حناه لواحظ الأسباب العاطفي[1]، يقول إيليا أبو ماضي:

أيُّهَا الشَّاعِرُ الّذِي كَانَ يَشْدُو بَيْنَ ضَاحٍ مِنَ الجَمَالِ وَ وضَاحِكْ

مَوْكِبُ الشِّعْرِ تَائِه فِي فَضَاء لَيْسَ فِيهِ سِوَى حَطِيمِ سِلَاحِكْ[2].

و هذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على مشاعر جيّاشة تلتهب في صدره

فيترجمها برؤى سخيّة تتفاعل معانيها مع عوامل الأمل و التّفاؤل. و انشراح الصدر. و إذا تأمّلنا باقي القصائد المشتملة على الرومانسية تلوح لنا عاطفة الشاعر الممزوجة بسحابة عمره المتأرجح بين الشّفقة و القسوة و الصّداقة و العداوة. هذا ما نلمسه في قصيدة له يتحدّث فيها عن "كمنجة" جذبته إليها و سحرته بنظمها البارع حتّى تطلق احساسه والتصق وجدانه بإيقاعها يقول:

شَاهَدْتُ كَالمَيّتْ فِي أَكْفَانِه فَوَجَمْتُ إلَّا عِبرَةً أَدْرِيهَا

مَهْجُورَةٌ كَسَفِينَةٍ مَنْبُوذَة فِي الشَّطِّ غَابٌ وَ رَاءَهُ مَاضِيهَا

نَسَجَتْ عَلَيْهَا العَنْكبُوتْ خُيُوطَهَا وَ كَسَى الغُبَارُ غَلَالَةُ تَكْسُوهَا[3].

[1] عبد المجيد الحر: إيليا أبو ماضي باعث الأمل و مفجر ينابيع التفاؤل ،ص130.

[2] ديوان إيليا أبو ماضي: قصيدة" الكأس الباقية"، ، ص 238.

[3] ديوان إيليا أبو ماضي: قصيدة "الكمنجة المحطّمة"، ص 797.

و ما إن يرسم المعايير الّتي ترفع من مكانة تلك الآلة المتّصلة بنياط قلبه و المفجرة لمشاعره يلوّنها برومانسية ترفع من مكانتها و تجعلها الآهة المنبعثة من الروح إلى الروح[1].

و مهما تحدّثنا عن رومانسية القصائد في شعر أبي ماضي فلن نوفّي خفها لما تحمله من معاني و دلالات. وذلك راجع لتجربته الخاصّة في أرض المهجر و مالها من انعكاسات على وجدانه. و ممّا كرّس هذه النزعة الرومانسية أيضا الأحداث الأليمة الّتي واجهها. فطغت على كثير من قصائده نزعة تأمّلية ذات الصبغة الفلسفية.

و بانتقالنا إلى سائر القصائد تلوح لنا عاطفة الشاعر الممزوجة بسحابة عمره المتماوج في لجّة التّدفّق البشري المتهادي وسط التفاعل النّفسي المتأجج بين الشّفقة و القسوة و الصّداقة و لعداوة، و الرومانسية المتعاطفة مع رصانة التّحديث في شعر أبي ماضي قائمة على أساس مهم في عملية الخلق الشّعري الصّادرة عن عاطفة قويّة، وشعور لا يعرف الرّياء، فالشّاعر لا يتصنّع المواقف ولا يحتلب عبقرية لتقصيد القصائد بل يعيش التّجربة بصدق و عمق عاطفي فيبدو أمامنا جليّا واضحًا، غنيًّا بالعطاء ولم يكن كذلك رجاء أن يحظى بقصيدة تجعل منه شاعرًا أو يرزق بأبيات يتحدّث بها النّاس. والملاحظ أنّ حداثة العصر قد تغلغلت في حنايا شاعريته، فجعلته بجلباب الرومانسية الشّفّافة، فكان عنده التعاطف الشّعري الّذي لمحناه صادق الإحساس و المشاعر الجامحة.

"ولا عجب في هذا فالرّومانسية الإنجليزية تعدّ رافدًا أساسيًّا في التفكير الأدبي المعاصر في العالم العربي و في الأعمال الأدبية ذاتها فمعظم الكتّاب و الشّعراء تأثّروا بها مثل، جبران، و العقّاد[2]. بل إنّه يمكن القول أنّ معظم شعرائنا المحدثين عادة ما يمرون بمرحلة رومانسية يستهلّون فيا التّراث الرّومانسي.

[1] عبد المجيد الحر: إيليا أبو ماضي باعث الأمل و مفجر ينابيع التّفاؤل، ص 132.

[2] عبد الوهّاب المسيري، ومحمد علي يزيد، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1979، ص 03.

و من هنا نكاد نجزم بأنّ المذهب الرومانسي الغربي قد ترك آثار عميقة في الأدب العربي الحديث و يرجع ذلك إلى الحاجة في التّجديد الّتي فرضت نفسها بإلحاح. على مستوى الحياة السياسية و الفكرية والأدبية، كما يرجع إلى استجابتها لما تطمح به نفوس الأدباء من ثروة على شتّى أشكال الظّلم و الحرمان و تقديس للحرّية، وتعبير عمّا يجيش في صدورهم، وما يطمح إليه شعورهم من تحرّر و لعلّ ما شهده الأدب العربي مع بداية القرن العشرين من تغيّرات كثيرة هي ما دفعته إلى تقمّص ملامح الرومانسية الغربية. و هذا ما وجدناه جليًّا في أشعارهم وخاصّة شعراء المهجر و الّذي كان لهم الفضل الكثير في ظهور الرومانسية عند العرب، وشاعرنا أبو ماضي واحد من بين هؤلاء. فجاءت رومانسيتهم تعبيرًا قويًّا عن آلام النّفس بما تعكسه من من عواطف و نوازع، وذلك ما يظهر في إقبالهم على الطبيعة وامتزاجهم بها حتّى قال النّقّاد عن الأدب المهجري:" إنّه ثروة و ربح للّغة العربية"[1].

[1] قصة الأدب المهجري: عبد المنعم خفّاجي، دار الكتاب اللّبناني، ط 1980، ص 326.

الفصل الثاني:

النزعة التفاؤلية في شعر إيليا أبو ماضي:

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن التفاؤل –تعريفه–

المبحث الثاني: النزعة التفاؤلية عند إيليا ابو ماضي.

المبحث الثالث: نماذج من شعره التفاؤلي.

الفصل الثاني: النزعة التفاؤلية في شعر إيليا أبو ماضي:

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن التفاؤل

تعريف التفاؤل:

التفاؤل لغة: فَأَلَ، الفَأْلُ: ضد الطّيرة و الجمع فُؤولْ وقال الجوهري: الجمع أفؤُل[1].

اصطلاحًا: الفأل هو الكلمة الصالحة والطّيبة أو الحسنة، و في الحديث أنّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يحبّ الفأل و يكره الطيرة، و الطيرة ضد الفأل، و هي فيها يكره كالفأل فيما يستحب، و الطيرة لا تكون إلّا فيما يسوء. و الفأل يكون فيما يحسن و فيما يسوء، وفي نوادر الأعراب: يقال: لا فأل عليك بمعنى لا صبر عليك، و لا طير عليك، ولا شرّ عليك[2] .

و يعرّف قاموس" أكسفورد للغة الانجليزية" التّفاؤل: بأنّه تلك النّزعة الّتي تنظر إلى الجانب المشرق من الأوضاع، و إلى توقّع أفضل النّتائج من أي تتابع للأحداث و التّفاؤل يشكل دافعية قوية، كما أنّه يعتبر أحد ركائز النّجاح[3]

و بما أن اقبال النّاس على الحياة يختلف من شخص لآخر، بحسب العوامل المؤثرة و الظروف المحيطة بهم. فهناك من يقبل على هذه الحياة فرحًا متفائلًا يرى فيها كل الخير، فيدعو غيره إلى التمتّع بكل ملذات الحياة. هؤلاء هم المتفائلون الّذين لا يرون في الحياة إلّا السعادة و السّرور و الفأل الحسن. فإنّ وصفوها صوّروها في أجمل صورها و عرضوا علينا محاسنها و ما يحتوي من بهجة و فرح وهم بذلك يطلقون دعوة صريحة لنا للتمتع بها و إلّا عشنا حياة ضنكا.

---

[1] انظر: لسان العرب: لابن منظور، دار الكتب العلمية، ط 1-2005، المجلّد 6، ص 591.

[2] ينظر إلى المرجع نفسه: ص 592.

[3] انظر: مصطفى حجازي: إطلاقات الحياة، قراءات في علم النفس الإيجابي، الناشر التنوير ط 2012، ص114.

و التفاؤل في الحياة ليس وليد اليوم، بل عرفه و مجّده الشعراء عبر مختلف العصور بدءًا بالعصر الجاهلي و مرورًا بالفترة الإسلامية الّتي تأثّرت بها حملته دعوة الإسلام من تعاليم جديدة و أوامر و نواه لكثير ممّا ألّفته العرب قديمًا و فتحت أبوابًا كانت مغلقة في الجاهلية كالتّفكير في ثواب اللّه، و التمتع بمتاع آخري، ونعيم دائمٍ.

وما إن نلج العصر الحديث و بالضبط "أدب المهجر" متمثّلًا في شعره حتّى نلاحظ بكل وضوح النّظرة التّفاؤلية الّتي طغت على معظم الشعراء، ولعلّها كانت من الصّفات البارزة في أدب المهجر خاصّة الشعر فهي تتردد في جوانب و تشيع في أجوائه، فانساب شعرهم متفائلًا رائعًا داعيًا إلى حياة جميلة تسودها الفضيلة و المساواة بين أنباء الإنسانية، فضعوا تلك المعاني شعرًا عبّر لنا عن سموّ هؤلاء الشعراء، و شعورهم بإنسانيتهم فكانت دعواتهم دعوات واضحة لمجتمع إنساني معافى تسوده روح المحبّة و المودّة و الإخاء لدرجة أنّ شعرهم أتى بأجمل المعاني السّامية و الأنغام الرّائعة، والألحان الجميلة الّتي تدفع إلى التّأمل في أسرار الكون و الحياة.

و هم بذلك يؤكّدون لنا أنّ لهذه الحياة صورة زاهية مشرقة تنبض بالحيوية و الحركة، و أنّها تستحق التمحيص و التّدقيق، وكل هذه المعاني السّامية ادركها أدباء المهجر بعد تأمّل و تعمّق و خبرات "وهم في تأملاتهم تلك كانوا يتجرّدون من طبيعة الطين فيحلقون بأخيلتهم في عوالم مجهولة لِتحليل النّفس الإنسانية ويحاولون إماطة اللّثام عن أسرار الحياة، بل و أسرار ما وراء الحياة للكشف عن حقائق تؤذي إلى تحقيق مُثُل انسانية خالدة[1].

"و في علم النفس يحتل التّفاؤل مكانة مهمة، فهو يولّد الأمل، وهو مؤشر قوي لتحقيق النتائج الإيجابية في التفكير و العواطف للارتياح النّفسي[2]. و لقد أظهرت الدراسات النفسية أنّ المتفائلين من

[1] عيسى الناعوري: أدب المهجر، الفصل الرابع، ص 83

[2] انظر مصطفى حجازي: إطلاقات الحياة "قراءات في علم النّفس الإيجابي، ص 111.

النّاس أقل عرضة للكآبة، و أكثر ميلًا للنّجاح في الحياة، بل و أفضل صحّة من النّاحية الجسمانية، حيث أن التّفاؤل عبارة عن ميل أو نزوع نحو النظر إلى الجانب الأفضل للأحداث أو الأحوال.

و بهذا يبقى التفاؤل هو الجانب المشرق في حياة كل شخص مهما كانت الظروف و الأحداث.

المبحث الثاني: النّزعة التفاؤلية عند إيليا أبو ماضي

إنّ ظاهرة التفاؤل في شعر إيليا أبو ماضي سالت الكثير من الحبر و تضاربت الآراء بأنّه كان متفائلًا يدعو إلى التّفاؤل في الحياة، و بيّن كونه شاعرًا يميل إلى التّشاؤم. و لكنّي أرى أنّ أبى ماضي ما هو في النّهاية إلّا بشرٌ تجرى عليه سنة اللّه في الحياة يتعرّض لأسباب السّعادة فتجعله سعيدًا متفائِلًا و مصائب الدّهر الّتي تجعل منه إنسانًا كئيبًا. فإيليا أبو ماضي سعى حثيثًا من أجل كشف أسرار الحياة. و المتأمّل في شعره يرى أنّه قد امتلأ بتلك النزعة الوجدانية الزّاهدة في واقع الحياة.

و رغم المحن و الرّزايا في حياته إلّا أنّه غمار تجاربها، و تفاعل مع أحداثها و ظروفها فنجد دعواته المخلصة إلى التفاؤل، بين ثنايا شعره، تنساب إلى أعماق النّفس لتزيل رواسب اليأس. كيف لا؟ و هو القائل:

كَمْ تَشْتَكِي وَ تَقُولُ إِنَّكَ مُعْدَمْ وَ الأَرْضُ مِلْكُكَ وَ السَّمَاءُ وَ الأَنْجُمْ

وَ لَكَ الحُقُولُ وَ زَهْرُهَا وَ أَرِيجُهَا وَ نَسِيمِهَا وَ البُلْبُلُ المُرَنَّمْ

وَ المَاءُ حَوْلَكِ فِضَّةٌ رَقْرَاقَةٌ، وَ الشَّمْسُ فَوْقَكِ عَسْجَدٌ يَتَضَرَّمْ[1]

و هو في دعوته إلى التفاؤل يؤكّد بأنّ الّذي يختلج نفسه نار الحب، ولم ينهل من نبعه و يرتوي من فيضه حتمًا سيقضي أيّام عمره في أسى و حرمان لذلك نجد قلبه مليئًا بالحب يبعث روح العزم والإيمان بين قومه ليدعوهم بصفاء إلى الخير. وما أجوح الإنسان الذي أتعبته الحياة الشاقة إلى مَن ينير دربه يوجّهه مخلصًا إيّاه من أغلال اليأس و القنوط. و في هذا يقول:

قَالَ: السَّمَاءُ كَئِيبَةٌ !وَ تَجَهّمِ قُلْتُ: ابْتَسِم يَكْفِي التَّجَهُّمُ فِي السَّمَاءْ

[1] ديوان الجداول: قصيدة "كم تشتكي"، ص 185.

قَالَ: الصِّبَا ولّى !فَقُلْتُ لَهُ ابْتَسِمْ لَنْ يُرْجَعَ الأَسَفُ الصِّبَا المُتَصَرِّمَا[1]

ويستمر شاعرنا على هذه الحالة، فلم يترك لا شاردة ولا واردة إلَّا وردّ شافيا لأنّ عواطف الحب، تملأ وجدانه أحلامًا عذبة رقيقة تحوّل يباب العمر القاحل ربيعًا، وكهولته شبابًا، وظلّ طوال عمره يرسل ألحانًا و أنغامًا رائعة تبعث الأمل والإشراق في الحياة لتكشف أستارها و سدولها المعتمة القاتمة إلى قبسات مضيئة.

و لما كانت الحياة الكريمة هدف و مبدأ كل إنسان فإيليا أبو ماضي ليس إلّا أحد الشعراء الكبار الّذين اتّخذوا من التفاؤل مبدأ في الحياة، فجعل يدعوا إليه في معظم شعره. و لربّما اعتبر التفاؤل طريقًا يعين الإنسان ليحيا حياة كريمة. وقد أعانه على ذلك التجارب المختلفة الّتي مرّ بها خلال فترة حياته. فطفولته كانت بلبنان، تلتها هجرة إلى مصر أخرى إلى أمريكا.

هذه المؤثّرات كلّها استفاد منها الشاعر استفادة عظيمة من خلال احتكاكه بالمجتمع، ولعلّ خير ما خرج به إيليا أبو ماضي، و دعا إليه هو الدعوة إلى مجتمع يسوده التسامح و البساطة و التفاؤل. فعمل على ترجمة هذه الدعوة إلى واقع من خلال شعره فأتت لنا في عدة مظاهر.

إذا ترك إيليا أبو ماضي التّشاؤم ونظّم شعرًا متفائلًا حتّى صار رائد المتفائلين فأصبح يدعوا إلى نبذ الهموم حتّى لا تتكدّر الحياة و تصبح عبئًا ثقيلًا يقول:

هُوَ عِبْءٌ عَلَى الحَيَاةِ ثَقِيلٌ مَنْ يَظُنُّ الحَيَاةَ عِبْئًا ثَقِيلًا[2]

ولعل مراحل الاغتراب المختلفة قد عملت على صقل تجربته في الحياة فأرهفت عاطفته و أيقظت شعوره الإنساني ليحيا الجميع الحياة الكريمة فمعظم النقاد و الأدباء اتفقوا على أنّ كل النّظرات الفلسفية الّتي صدرت عن إيليا أبا ماضي هي نظرات هادفة حتّى ينظر الإنسان لأخيه الإنسان نظرة تواضع و أخوّة. وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على الشاعر كان واقيًا في رغابته

[1] ديوان الخمائل: قصيدة "ابتسم"، ص 270.

[2] ديوان إيليا أبو ماضي: قصيدة "فلسفة الحياة"، ص 321.

و طموحاته، وهي نظرة تدلّ على النزعة التفاؤلية. فكل من يرضى بالواقع ولا و لا يكترث لتقلّبات كثيرًا يخرج بتجربة مفادها أنّه يجب عليه أن يرحب بالواقع و لو كان مرًّا.

و الجميل ما في دعوات إيليا التفاؤلية أنّها تهتم بالدّعوة إلى الحياة في عالم الرّؤى و الأحلام بعيدًا عن عالم الأجسام و الآلام، وهي بذلك تطغي على حياة الإنسان محبة الحياة، ومساعدة الغير فالإنسان لا يكتمل إلّا بأخيه الإنسان و بصديقه و رفيقه. يقول:

يَا رَفِيقِي أَنَا لَوْلَا أَنْتَ مَا وَقَعْتُ لَحْنَا

كُنْتُ فِي سّرى لَمَا كُنْتُ وَحْدِي أَتَغَنَّى

هَذِهِ أَصْداءْ رُوحِي، فَلْتَكُنْ رُوحُكَ أُذُنَا

رُبَّمَا كُنْتُ غْنِيًّا غَيْرَ انّي بِكَ أَغْنَى[1]

و قد أدرك إيليا أبو ماضي قيمة الجمال في الحياة، و أدرك كيف يخرج هذا الجمال من نفسه، و كيف يُطْغى على الدنيا لمسات الحب والجمال و التفاؤل فتكون الحياة كلّها خيرًا و أملًا جميلًا. يقول:

لِتَكُنْ حَيَاتُكِ كُلُّهَا أَمَلًا جَمِيلًا طَيِّبًا

وَلِتَمْلَأْ الأَحْلَامَ نَفْسَكِ فِي الكُهُولَةِ وَ الصِّبَا[2]

فالجمال و الشّعور به لا يصدران إلَّا من نفس جميلة تنظر إلى الحياة بمنظار متفائل. وحول هذه المعاني نقف على أرواح القصائد المشهورة الّتي تدعو إلى الابتسامة. يقول عيسى الناعوري: " يتردد اسم أبي ماضي في دنيا الضاد مصحوبًا بالإعجاب الكبير بما له من قصائد، تتلاقفها الأيدي و تتغنّى بها الألسنة لأنّها كنوز أدبية غنية بالصدق و الجمال، نابضة بالشعور و الحياة دافقة بالسّمو

[1] ديوان الجداول: قصيدة "الفاتحة"، ص 8.

[2] إيليا أبو ماضي: قصيدة "المساء"، دار الفكر العربي، ط 1، 1999، ص 413.

و الغنى الروحي يجد فيها المحزون سلوى، و المحروم أملًا، و المتعب ترزيجًا فهي من الحياة و إلى الحياة وهنا سرّ قوّتها."[1]

و لو عدنا إلى قصيدة "ابسمي" لوجدنا الشاعر يدعونا من خلالها إلى أن يخلق لأنفسنا البهجة حتّى و لو من نسيج خيالنا فنصنعها لأنفسنا صباح مساء:

ابْسِمِي كَالوَرْدِ فِي فَجْرِ الصّباح وَ ابْسِمِي كَالنَّجْمِ إِنْ جُنَّ المِسَاءْ[2]

بل يجب أن تكون الابتسامة في أصعب الظروف الّتي يمكن أن تصيب الإنسان في حياته، فعليه أن يحلم بالأمل و يعلم أن بعد الشّدة فرجًا. يقول:

وَإِذَا مَا كَفّنَ الثَّلجَ الثَّرى وَإِذَا مَا سَترَ الغَيْمَ السَّمَاءْ

وَ تَعَرَّى الرّوْضُ مِنْ أَزْهَارِهِ وَ تَوَارَى النُّورُ فِي كَهْفِ الشّتَاءِ

فَاحْلُمِي بالصّيْفِ ثُمَّ ابْتَسِمِي تَخْلُقِي حَوْلَكِ زَهْرًا وَ شَذَاءْ[3]

إذا لك القدرة لتنشر العطر و النور في الحياة ليشيّع الأمل و الابتسام في نفوس النّاس. فالشاعر ليس من يتفنن في وصف الخمر أو مدح الملوك فقط أو وصف النساء و الغزل بهنّ، أو من وقف على الأطلال. بل الشاعر الحق يحبّ أن يكون وجوده قائمًا على منفعة غيره ليدخلهم في السّعادة، ويخرج عنهم الآلام، يقول في ذلك:

كَمْ مَلِيكٍ كَمْ قَائِدٍ كَمْ وَزِيرٍ وَدَّ لَوْكَانَ شَاعِرًا مِسْكِينًا[4]

[1] عيسى الناعوري: إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث، دار الطباعة والنشر، ط 1، ص 30.

[2] ديوان إيليا أبو ماضي: قصيدة "ابسمي"، ص 58

[3] المرجع نفسه ص 58.

[4] ديوان الجداول: قصيدة "العميان"، ص 73.

"هكذا أراد إيليا أو ماضي أن يكون شاعرًا، هكذا أراد أن تكون رسالته و سعى لتحقيق ذلك في شعره، فنجده سعى لنشر الابتسام و التفاؤل لتشعّ لنا جمالًا في هذه الحياة، فيشعّ الأمل في نفوس النّاس، و يسود المجتمع بالسّعادة "[1]

وقد لا يختلف أن الحياة بها بعض الحقائق القاسية الّتي تعكّر صفوها، إلّا أن إيليا أبو ماضي اختار أن يصوّرها لنفسه بالشكل الّذي تهواه لأنّه يريد حياة هادئة يملأها الحب والإخاء يقول في ذلك:

يُرِيدُ الحُبُّ أَنْ نَضْحَكَ فَلْنَضْحَكْ مَعَ الفَجْرْ

وَأَنْ نَرْكُضَ، فَلْنَرْكُضْ مَعَ الجَدْوَلِ و النَّهْرْ

وَ أَنْ نَهْتِفَ فَلْنَهْتِفْ مَعَ البُلْبُلِ وَ القَمَرِي[2]

و بالتّالي تكون دعوته لمن وقف ليتأمّل الجانب المحزن من الحياة، و ما تحمل بين أعطافها من نذر و آلام بأن هتف به ليصرفه عن تأمّلاته مخبرًا إيّاه بالعواقب الوخيمة الّتي ستلحق به جرّاء هذا التّأمّل السّالب قائلًا:

إِنَّ التَّأَمُّلَ فِي الحَيَاةِ يَزِيدُ أَوْجَاعَ الحَيَاة

فَدَعِي الكَآبَةَ وَ الأَسَى وَ اسْتَرْجِعِي مَرَحَ الفَتَاةْ

قَدْ كَانَ وَجْهُكِ فِي الضُّحَى مِثْلَ الضُّحى مُتَهَلِّلَا

فِيهِ البَشَاشَةُ وَ البَهَاءْ

لِيَكُنْ كَذَلِكَ فِي المسَاءْ[3]

[1] عيسى الناعوري: أدب المهجر، ص 193.

[2] ديوان الجداول: قصيدة "تعالي"، ص 30.

[3] ايليا أبو ماضي : ديوان الجداول، ص 62.

يواصل أبو ماضي تلك النزعة التفاؤلية من خلال معاني سامية هدفت إلى سعادة الأحباء و كرامتهم، وبث روح الأمل و الرّجاء فيقبلون على الحياة باغتباط و سرور يجعلهم يتمتعون بجمالها وروعتها كيف لا و هو القائل:

كُنْ بَلْسَمًا إِنْ صَارَ دَهْرُكَ أَرْقَمَا وَحَلَاوَةٌ إِنْ صَارَ غَيْرُكَ عُلْقُمَا

إِنَّ الحَيَاةَ حَبَّتْكَ كُلَّ كُنُوزِهَا لَا تَبْخَلَنَّ عَلَى الحَيَاةِ بِبَعْضِ ما[1]

والحياة لما جادت عليك الكنوز لم تبتغ من وراءها الشكر و الثّناء، ولذلك عليك أن تسلك طريقها و يجعل هدفك في الحياة الإحسان إلى غيرك دون أن ترتجي ترتجي الجزاء.

أَحْسِنْ وَ إِنْ لَمْ تَجْزُ حَتَّى بِالثَّنَاء أَيُّ الجَزاءَ الغَيْثُ يَبْغِي إِنْ هَمِي

مَنْ ذَا يُكَافِئُ زَهْرَةً فَوّاحة أَوْ مَنْ يُثيبُ البُلبُل المُتَرَنِّمَا[2]

وإيليا أبو ماضي عندما يتغنى بهذه المعاني الرّائعة إنّما يهدف إلى تطهير النفوس ليجعل منها ديارًا مقدّسة للحب الواسع السامي ثمّ يأمر بالمحبّة وينهانا عن البغض و الحسد و الكراهية ويتّجه بشعره و دعواته اتّجاهًا واحدًا ليخدم به المجتمع، و يفيد الإنسانية، فيشرق عليها من خلال تعبيره عن نفسه و ذاته متجاوبًا مع النّاس و المجتمع، ولنا أن ننظر إلى هذا التفاؤل الرّائع في قوله:

أَحْبِبْ فَيَغْدُو الكُوخَ كَوْنًا نَيِّرًا وَ ابْغَضْ فَيُمْسِي الكَوْنَ سِجْنًا مُظْلِمَا

كَرِهَ الدّجَى فَاسْوَدَّ إِلّا شُهْبُهُ بَقِيتُ لِتَضْحَكَ مِنْهُ كَيْفَ تَجَهُّمَا

لَوْ نَعْشَقُ البَيْدَاءُ أَصْبَح رَمْلُهَا زَهْرًا وَصَارَ سَرَابُهَا الخَدّاعُ مَا[3]

[1] ديوان إيليا أبو ماضي: قصيدة "كن بلسما"، ص 350.
[2] المصدر نفسه ص 350.
[3] المصدر نفسه، ص 351.

إنّ الحبّ الإنساني الخالص هو أمنية كل من أدرك سرّ الحياة، وحب المحبّة و الخير لكل المخلوقات، أمنية كل النفوس الكبيرة الّتي تسمو لتخبرنا أنّ الإنسان يعيش بالحب و المحبّة بعيدًا عن الخصومات . فالشاعر دائمًا يبحث عن المسرّة هذا ما لاحظناه من خلال قصيدته "الغبطة الفكرية" حيث وجدنا للشاعر قلبًا زاخرًا بصور الجمال و مفاتن الطبيعة. ومباهج الحياة، محاولًا أن يقلل من نبرات التّشاؤم و النّدم والشّكوى في المجتمع قائلًا:

أَقْبَلَ العَيْدُ، وَ لَكِنْ لَيْسَ فِي النَّاسِ المِسَرّة

لَا أَرَى إلَّا وُجُوهًا كَالحَاتِ مُكْفَرَّة[1]

وينظر أبو ماضي من حوله فيجد النّاس عابسين متجهّمي الوجوه، فيتساءل لما يتصرف الناس هكذا؟ ! ثمّ لماذا يتساوى عندهم النفع و الضرر؟.

لَيْسَ لِلْقَوْمِ حَدِيثٌ غَيْرَ شَكْوَى مُسْتَمِرّة

قَدْ تَسَاوَى عِنْدَهُم لليَأْسِ نَفْعٌ وَ مَضَرّة[2]

و حقيقة هذا كلّه أن النفع و الضّرر لا يستويان." فلماذا لا نفتح قلوبنا إلى الحياة و نأخذ منها أجمل ما فيها، ونمر مرور الكرام على شرورها و آلامها و أحاجيها."[3]

هذه هي الروح الّتي سعى إيليا أبو ماضي لنشرها في المجتمع، فأراد له الحب و الإخاء و رأى في ذلك العلاج الشّافي لكل ما من شأنه أن يكدّر الحياة فتسيل الدّموع و تسود الأحزان، و بذلك يصرح:

[1] ديوان الخمائل: قصيدة "الغبطة فكرة"، ص 170.

[2] المصدر نفسه: ص 170.

[3] جورج صيدح أدبنا و أدباءنا في المهاجر الأمريكية، ط 3، ص 284.

أَيُّهَا البَاكِي رُوَيْدًا لَا يَسُدُّ الدَمْعُ ثغْرُه

أَيُّهَا العَابِسْ لَنْ تُعْطَى علَى التَّقْطِيبْ أُجْرَة

لَا تَكُنْ مُرًّا، وَ لَا تَجْعَلْ حَيَاةَ الغَيْرِ مُـرّه

إنّ مَنْ يَبْكِي لَهُ حَوْلٌ عَلَى الضَّحِكِ وَ قُدْرَة

فَتُهَلّلْ وَ تُرَنِّمْ، فَالفَتَى العابس صَـخْرَة[1]

"إذا يجب أن ندرك جيّدا أنّ الشَّكْوى وَ التّذمّر لا يخففّان من البلوى و المصيبة ولا ينقصان من الأسى و الحزن، كما لا يسدّ الدمع ثغره و لا يُعطى العابس على تقطيبه أجْرًا".[2]

وبعد الإدراك يجب أن نبتعد عن الشكوى و الحزن على ما مضى، وأن نعمل بكل جد و جهد على أن تكون حياتنا حياة سعيدة مثالية رائعة. وهكذا تتوالى الدّعوات التّفاؤلية من شاعرنا إيليا أبو ماضي لتعيننا على نوائب الدّهر عـمودها الحب، حب الإنسان لأخيه، وكيف لا تصدر تلك الدّعوات التّفاؤلية لحبّ الحيـاة و المجتمع من شاعر أفنى عمره في إيصال وجهة نظره إلى أفراد المجتمع حتّى تكون مرآة صادقة، وعاكسة لما يختلج في كل نفس. فهوى يرى:" إنّ الإنسان هو الّذي يأبى أن يقيم تمثالًا من الحمأ المسنون لمن كان غنيًّا يزهو بما له، بل يجعل من حب الفضل شأنًا لَه فيكرم اللّيل و الضّحى، وينصب تمثالًا للشّمس و القمر"[3]. وهو الّذي نهى أن تكون الإنسانية كقوله:

فَلَسْتُمْ تُحِبُّونَ الغَنِيَّ إذا افتقر وَلَسْتُمْ تُـحِبّونَ القَوِي إذَا اتْدَحَرْ

رَأَيْتُكُمْ لَا تَعرِجُونَ بِرَوْضَةٍ إذا لَمْ يَكُنْ في الرَّوضِ فِيء وَلَا ثَمَرْ

وَلَا تَعْلِقُونَ الشّاة إلَّا لِتَسْمَنُوا وَلَا تُقتِنُونَ الخَيْلَ إلَّا عَـلَى سَفَرْ

[1] ديوان الخمائل: قصيدة "الغبطة فكرة"، ص 170.

[2] فؤاد يس: الشاعر المهاجر، د. ط، ص 24.

[3] فؤاد يس: الشاعر المهاجر، د. ط، ص20.

إِذَا كَانَ حُبُّ الفَضْلِ لِلْفَضْلِ شَأْنُكُم وَلَمْ تُخْطِئُوا فِي الحِسِّ وَ السَّمْعَ وَ البَصَرْ

فَمَا بَالُكُمْ لَمْ تُكْرِمُوا اللَّيْلَ وَ الضُّحَى وَلَـمْ تَنْصِبُوا التِّمْثَالَ لِلشَّمْسِ وَ القَمرْ[1]

وإذا عرجنا على مبدأ الحرّية لَوَجدنا شاعرنا تربّع على عرش الشُّعراء الّذين يدعون إليها و الّتي نَادَت بها جميع الأديان السّماوية، و نادى بها جميع العقلاء و الحكماء في كل مكان وزمان، و ها هو إيليا أبو ماضي يجعل دعوته نحو هذا المعنى السّامي الّذي كرّم به اللّه سبحانه وتعالى الإنسان فجعله حُرًّا. وهي دعوة لا تخرج إلّا من إنسان أدرك قيمة نفسه للآخرين و في نفس الوقت قيمة الآخرين له في هذه الدّنيا في وعاء عام من الحرّية و هو الّذي حكى عن نفسه في هذا المعنى قائلًا:

حُرٌّ وَ مَذْهَبُ كُلُّ حُرٍّ مَذْهَبِي[2]

و لشاعرنا في الحرّية نظرات عميقة تمكّنه من الشّعور بشعور الأزهار و مشاركتها أرقّ إحساساتها، و أدفأ عواطفها، فهو يبكي لتلك الزهرة السّجينة في القصر بعد أن كانت حرّة في الرّياض الخضراء تحيِّ الشّمس عند شروقها و حين غروبها و تتراقص حولها أغصان الحدائق و فراشات الضّحى على نغمات الرّيح فيعلوها الفضاء الرّحب، وهو في دعوته للحرّية يدرك أن الحرية هي الأرض الخصبة لنمو الحب، و أنّ الحب لا يعيش إلّا في حضن الحرية يقول:

وَ لَكِنَّنِي أَبْكِي وَ أَنْدَبُ زَهْرَة جَنَاهَا وُلُوعٌ بِالزُّهُورِ لَعُوبٌ

لَهَا الحُجْرَةُ الحَسْناءَ فِي القَصْرِ إِنَّمَا أَحَبُّ إِلَيْهَا رَوْضَةٌ وَ كَثِيبٌ[3]

إذا " فقد كان أبو ماضي ذلك الإنسان صاحب النّفس الّتي تهيم بحب المجد و حب النّاس، وحب السّعادة و الجمال، وحب الحرّية، وحب الطّبيعة"[4] أي كان ذا نفس تحبّ كلّ ما في الحياة.

---

[1] ديوان الجداول: قصيدة "التمثال"، ص 53.

[2] ديوان الجداول: قصيدة "أنا"، ص 99.

[3] المصدر نفسه، قصيدة "السجينة"، ص 16.

[4] فؤاد يس: الشاعر المهاجر، د. ط، ص 59.

المبحث الثالث: نماذج من شعره التّفاؤلي

قصيدة ابتسم:

يريد أبو ماضي أن يلتفت إلى الجانب الضّاحك من الحياة، ولا ينظر إليها عابسة مذمومة، و حول هذه المعاني الجليلة يقف مع أسرار و أغوار قصيدته "ابتسم" الّتي يمكن أن يلجأ إليها كل من وصل إلى طريق مسدود في هذه الحياة بعدما أصابه الألم و الحيرة و التّشاؤم بسبب متعصّبات الحياة، عندها سيلتفت إلى دعوات المتفائلين وخاصّة إيليا أبو ماضي، دعوة موجّهة له و لكل من أثقلت كاهله الهموم حتّى أظلمت الدّنيا في عينيه، وقضت على روح التّفاؤل عنده.

و من خلال هذه القصيدة نلمح قدرة الشاعر و براعته في إدخال البهجة و السرور إلى النفوس المتألّمة الّتي داقت و عانت ويلات الدّهر. كما نلمح نظرته المتفائلة و نفسيته المؤمنة بجمال الحياة. و الشّيء الجميل و الملفت للانتباه هو طريقة عرضه لهذه القصيدة الّتي جاءت على شكل حوار.

قَالَ: السّمَاءُ كَئِيبَةٌ! وَ تَجَهُّمَا قُلْتُ: ابْتَسِمْ يَكْفِي التَّجَهُّمَ فِي السّمَاءِ !

قَالَ: الصِّبَا وَلَّى ! فَقُلْتُ لَهُ: ابْتَسِمْ لَنْ يُرْجَعَ الأَسَفُ الصِّبَا المتَصَرِّمَا !

قَالَ: الَّتِي كَانَتْ سَمَائِي فِي الهَوَى صَارَتْ لِنَفْسِي فِي الغَرَامِ جَهَنَّمَا

خَانَتْ عُهُودِي بَعْدَ مَا مَلَكَتُهَا قَلْبِي، فَكَيْفَ أُطِيقُ أَنْ أَتَبَسّمَا

قُلْتُ: ابْتَسِمْ و اطْرِبْ فَلَوْ قَارَنْتُهَا قَضَيْتَ عُمْرُكَ كُلّهُ مُتَأَلِّمَا[1]

فعلًا هو حوار رائع يدفع عن النفس كلّ ما يعكّر صفوها. لأنّك كلّما حلّت بك مصيبة تتساءل كيف تبتهج و تبتسم؟ حتمًا ستجد الجواب بين ثنايا هذه الأبيات و سنجد ما يبعث الأمل في نفسك، و يجلب الطّمأنينة و الصّبر إلى قلبك. و القصيدة، كلّها تسير على هذه الطّريقة من

[1] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة" ابتسم"، ص 349.

الحوار تقول نادرة جميل سراج "نلاحظ أنّ أبا ماضي يكثر من هذا الأسلوب الحواري في الشّعر الّذي جاء من واقعية الّتي جعلها مذهبًا له في الحياة."[1]

و في وسط هذه القصيدة يرى أنّه يجب على الإنسان أن يبتسم مهما كانت و ليصبر على نائبات الدّهر حتّى يعلم النّاس أنّه أقوى من الصّخر. يقول عن ذلك:

قَالَ: العَدىَ حَوْلِي عَلَتْ صَيْحَاتُهُمْ أَأُسَرُّ وَ الأَعْدَاءُ حَوْلِي فِي الحُمَى؟

قُلْتُ: ابْتَسِمْ، لَمْ يَطْلُبُوكَ بِدَمِّهِمْ لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ أَجَلَّ و أَعْظَمَا[2]

و لجمال هذه القصيدة و دورها في بثّ روح الأمل و التّفاؤل نورد الجزء الأخير من أبياتها لنعيش من خلالها تحبيب الحياة إلى الأحياء و الدّعوة إلى التّمتع بما فيها، فالحياة أيّام. و الأيّام دول بين النّاس، وما على الإنسان إلّا أن يستقبلها بوجه طلق. يقول:

قَالَ: اللَّيَالِي جَرَّعْتَ عُلْقُمَا قُلْتُ: ابْتَسِمْ وَ لَئِنْ جَرَّعْتُ العُلْقُمَا

فَلَعَلَّ غَيْرُكَ إِنْ رَآكَ مُرَنِّمًا طَرَحَ الكَآبَةَ جَانِبًا وَ تَرَنَّمَا[3]

و دائمًا هي دعوة بألّا نفكر في أنفسنا فقط بل في غيرنا فلا نحزن و نُحزن غيرنا معنا، و لنعمل و نسعى جاهدين على إدخال الأمل في قلوب المحزونين ولماذا نحزن؟ وماذا نَجني؟ ! يقول:

أَتُرَاكَ تَغْنِمُ بِالتَّرَنُّمِ دِرْهَمًا أَمْ أَنْتَ تَخْسِرُ بِالبَشَاشَةِ مَغْنَمَا؟[4]

ثمّ في الأخير يوجّه دعوة إلى النّاس بأن يبتسموا قائلًا:

[1] نادرة جميل سراج: دراسات في شعر المهجر، شعراء الرابطة القلمية، دار المعارف بمصر، ط 1964، ص 333.

[2] ديوان الخمائل: قصيدة "ابتسم"، ص 270.

[3] المصدر نفسه: ص 271.

[4] المصدر نفسه: ص 273.

فَاضْحَكْ فَإِنَّ الشُّهْبَ تَضْحَكُ وَ الدُّجَى مُتَلَاطِمُ، وَ لِذَا نُحِبُّ الأَنْجُمَا[1]

حتّى إذا ما وصل المتشائم الّذي تراكمت عليه الهموم إلى ثابتة و هي الفناء و الموت، فنجد شاعرنا يدعوه إلى تثبيت تلك الحتمية بالتفاؤل. و الّذي لا مفرّ منها.

قَالَ: البَشَاشَةُ لَيْسَ تُسْعِدُ كَائِنًا يَأْتِي إِلَى الدُّنْيَا وَ يَذْهَبُ مُرْغَمَا

قُلْتُ: ابْتَسِمْ مَادَامَ بَيْنَكِ وَ الرَّدَى شِبْرٌ، فَإِنَّكِ بَعْدُ لَنْ تَتَبَسَّمَا[2]

و هذه القصيدة فب الحقيقة دعوة لاستغلال فرص الحياة، وكل ثانية من حياتنا فتفاءل خيرًا تجده. فلا نعكّر صفوا الحياة بالتّذمُّر لأنّ العمر و الحياة أقصر من أن نستعملها في الأحزان و الآلام فيجب علينا أن نحاربها بكل ما أوتينا من قوّة " فالحياة عرض رائل، وما عيشة المرء فيها إلّا مرحلة لها نهايتها فلم نقصر حياتنا بالتشاؤم، ولمَ لا نغتنمها قبل أن تفلت من أيدينا."[3]

قصيدة و قائله:

و الّتي من خلالها نجده يتغير من غير شك من أولئك الثقلاء العابسين المتجهّمين الّذين ينغضون حياة النّاس بجدهم الممقوت و وجوههم الشاحبة المغمورة بضباب المآسي. يقول:

وَقَائِلُهُ: هَجَرْتُ الشِّعْرَ حَتَّى تَغَنَّى بِالسَّخَافَاتِ المُغَنَّى

أَفِي زَمَنِ الرَّبِيعِ وَ أَنْتَ لَاهٍ وَ قَدْ وَلَّى وَ لَمْ تَهْتِفْ بِلَحْنْ[4]

ثمّ يسأل متعجبًا من حال هؤلاء المتشائمين، و ماذا دهاهم؟

فَمَالُكَ لَيْسَ يَسْتَهْوِيكَ حَسَنٌ وَ أَنْتَ المَرْءُ تَعْشَقُ كُلَّ حَسَنْ

---

[1] ديوان الخمائل: قصيدة إبتسم، ص 273.

[2] المصدر نفسه : ص 273.

[3] نادرة جميل سراج: دراسات في شعر المهجر، شعراء الرّابطة القلمية، ص 334.

[4] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة" وقائله"، ص 386.

أَتَسْكُتْ وَ الشَّبَابُ عَلَيْكَ ضَافِ وَ حَوْلَكَ لِلْهَوَى جَنَّاتُ عَدْنْ[1]

و أبو ماضي اختزن كثيرًا من الحزن و الدّمع، و لذلك عرف قيمة البسمة و الفرح، أناته و أهاته ليبتهج الآخرين. و يا له من مقام عالٍ يقول:

وَلَكِنِّي امْرُؤٌ لِلنّاَسِ ضَحْكِي وَلِي وَحْدِي تَبَاريحِي وَ حُزْنِي

وَ تَأْبَى كِبْرِيَائِي أَنْ يَرَانِي فَتَى مَغْرُوقًا بِالدّمْعِ جَفَنِي

فَاسْتِرْ عِبْرَتِي عَنْهُ لَعِلاَ يَضِيقُ بِهَا وَ إِنْ هِيَ أَحْرَقَتْنِي

كَذَلِكَ كَانَ شَأْنِي بَيْنَ قَوْمِي وَ هَذا بَيْنَ كُلِّ النّاَسِ شَأْنِي [2]

هذا كلّه نضيف له عزمه و كبرياؤه و تصميمه على التّحدّي، كلّ ذلك مكّنه من طرد النزعة التشاؤمية الّتي نسيت الكثير من الاحباط و الاستكانة و أغرقت النّاس في لجج اليأس و الظّلاَم، لأنّه يؤمن أن اللّيل مهما طال لابدّ يعقبه النّهار و هذه سنة تعاقب الأيّام و التّاريخ يشهد بذلك و قد خاب و خسر من اعتمد على غيره، و لم يعتمد على نفسه يقول في ذلك:

سَبِيلُ العَزِّ أَنْ تَبْنِي وَ تُعَلِّي فَلَا تَقْنَعْ بِأَنَّ سِوَاكَ يَبْنِي

وَ لَا تَكُ عَالَةً فِي عُنُقِ جَدٍّ رَمِيمَ العَظْمِ أَوْ عِبْئًا عَلَى ابْنْ

فَمَنْ يَغْرُسُ لَكِي يَجْنِي سِوَاهْ يَعِشْ، وَ يَمُوتُ مَنْ يَحْيَا لِيُجْنِي[3]

[1] ايليا أبو ماضي : الديوان، قصيدة وقائله، ص 386.

[2] المصدر نفسه، ص 387.

[3] المصدر نفسه: ص 387.

قصيدة الحجر الصّغير:

و من أهم العناصر البارزة في شعره دعوته للتّآزر و التّضامن الاجتماعي و لعلّ هذا التّضامن الّذي دعا إليه بدعوات تفاؤلية لا يتحقق عنده إلّا بشيءٍ من التّضحية الّتي تشعر المرء بحقّه في الوجود، و قيمته في الحياة، وهي بذلك تكون حافزًا له لتقديم التّضحية و إن كانت على حساب راحته و متعته لإرساء قواعد المجتمع الفاضل على أسس متينة ثابتة من الشعور بالمسؤولية و القيام بالواجب.

فالفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الجماعة، و الجماعة كذلك فإذا ما قصر الفرد عن واجبه و تهاون في إنجازه و لم يعرف قدر نفسه ماتت فيه روح البذل و العطاء، حينئذ يتزعزع الكيان و يتصدّع. يقول في ذلك باستعمال الرّمز في قصيدة "الحجر الصّغير"

سُمِعَ اللّيْلُ ذُو النُّجُومِ أَبِينَا وَ هُوَ يَغْشَى المدِينَةِ البَيْضاءْ

فَانْحَنَى فَوْقَهَا كَمَشْرَقْ الهَمْ سْ يُطِيلُ السُّكُوتَ و الإصْغاءْ

فَرَأَى أَهْلَهَا نِيَامًا كَأَهْلِ ال كَهْفِ لَا حَلْبَةَ وَ لَا ضَوْضَاءَ

وَرَأَى لِسَدٍّ خَلْفَهَا مُحْكَمْ البُنْ يَانَ وَ المِاءَ يُشْبِهُ الصَّحْـرَاءَ[1]

نعم هذا شأن الإنسان الّذي يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ، وهو لا يدري أنّه يصنع المعجزات فيرى نفسه ضعيفًا لا قيمة له، والعكس يقول:

كَأَنّ ذَاكَ الأَنِيقَ مِنْ حَجَرٍ فِي السَّ دِّ يَشْكُو المقَـادِرِ العَمْيَاءْ

أَيْ شَأْنٌ يَقُولُ فِي الكَوْنِ شَأْنِي لَسْتُ شَيْئًا فِيهِ وَ لَسْتُ هَبَاءْ[2]

[1] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة "الحجر الصّغير"، ص 56.

[2] المصدر نفسه، ص 56.

إذًا فالحجر الصّغير ما هو إلّا رمز للإنسان الّذي يهمش نفسه شأنه في ذلك شأن هذا الحجر الّذي يسدّ ثغرًا في سدّ كبير يحمي المدينة من السيل و الطّوفان هذا الحجر شكى سوء حاله وقلّة شأنه و هو أنّه على النّاس و ضآلة قيمته فلا هو رخام و لا هو صخر.

لَا رُخَامُ أَنَا فَأَنْحَتُ تِمْثَا لًا وَلَا صَخْرَةٌ تَكونُ بَنَّاءْ

لَسْتُ أَرْضًا فَأَرْشِفْ المِاءَ أَوْ مَاءً فَأَرْوِي الحَدَائِقَ الغَنّاَءْ[1]

و هكذا قرر هذا الحجر الصّغير مغادرة السّد بعدما احتقر نفسه و حطّ من قدرها، وسرعان ما هوى السّد كلّه و داهم الطّوفان المدينة و في هذا قال:

حَجَرٌ أَغْبَرٌ أَنَا وَ حَقِيرٌ لَا جَمَالًا، لَا حِكْمَةً، لَا مَضَاءْ

فَلَأُغَادِرُ هَذَا الوُجُودَ وَ أَمْضِي بِسَلَامٍ، إنِّي كَرِهْتُ البَقَاءْ

وَهَوَ مِنْ مَكَانِهِ، وَ هُو يَشْكُو الأَرْضُ وَ الشُّهُبُ وَ الدُّجَى وَ السَّمَاءْ

فَتَحَ الفَجْرُ جَفْنَهُ....فَإِذَا الطُّوفَانُ يشقى المَدِينَةَ البَيْضَاءْ[2]

و في هذا مغزى كبيرة و هدف سامي و هو الدعوة إلى التّضامن الاجتماعي و تقدير المجتمع لأقل أفراده، وتنبيههم بأهمّيتهم في الوجود، فلكلّ مجاله يجب أن يبقى فيه من غير شكوى و ألّا يبخل على أخيه بثمرة جهده و عمله.

[1] إيليا أبو ماضي الديوان: قصيدة "الحجر الصّغير"، ص 56.

[2] المصدر نفسه: ص 56.

الفصل الثالث:

دراسة نفسية لقصيدة المساء:

المبحث الأول: قصيدة المساء.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية:

1-الدراسة الأدبية.

2-الدراسة البلاغية.

3-الدراسة الصوتية.

الفصل الثالث: دراسة نفسية لقصيدة المساء:

المبحث الأول: قصيدة المساء

1-السُّحُبُ تَرْكُضُ فِي الفَضَاءِ الرَّحْبِ رَكْضَ الخَائِفِينْ

وَ الشَّمْسُ تَبْدُو خَلْفَهَا صَفْرَاءَ عَاصِبَةُ الجَبِيـــــنْ

وَ البَحْرُ سَاجٍ صَامِتٌ فِيهِ خُشُوعُ الزّاهِديـــــــنْ

لَكِنَّمَا عَيْنَاكِ بَاهِتَتَـــانِ فِي الأُفُـقِ البَعِيـــــدْ

سَلْمَى...بِمَاذَا تُفَكِّرِين؟

سَلْمَى...بِمَاذَا تَحْلُمِينْ؟

*** *** ***

2-أَرَأَيْتِ أَحْلَامَ الطُّفُولَةِ تَخْتَفِي خَلْفَ التُّخُـــومْ

أَمْ أَبْصَرْتْ عَيْنَاكِ أَشْبَاحَ الكُهُولَةِ فِي الغُيُـــومْ

أَمْ خِفْتِ أَنْ يَأْتِي الدُّجَى الجَانِي وَلَا تَأْتِي النُّجُومْ

أَنَا لَا أَرَى مَا تَلْمَحِيـــنَ مِنَ المِشَاهِدِ إِنَّمَـــا

أَظْلَالُهَا فِي نَاظِرِيكِ

تَنِّمُّ يَا سَلْمَى عَلَي

*** *** ***

3-إِنِّي أَرَاكِ كَسَائِحٍ فِي القَـــفْرِ ضَلـَّ عَنِ الصَّدِيقْ

يَرْجُو صَدِيقًا فِي الفُلَاةِ، وَ أَيْنَ فِي القَفْرِ الصّدِيقْ

يَهْوَى البُرُوقَ وَ ضَوئَهَا، و يَخَافُ تَخْدَعُهُ البـُرُوقَ

بَلْ أَنْتِ أَعْظَمُ حِيرَةٍ مِنْ فَارِسٍ تَحْـــتَ القِتَـــالِ

لَا يَسْتَطِيعُ الانْتِصَارْ

وَ لَا يَطِيقُ الانْكِسَارْ

*** *** ***

4-هَذِي الهَوَاجِسُ لَمْ تَكُنْ مَرْسُومَـــةً فِي مُقْلَتَيْكِ

فَلَقَدْ رَأَيْتُكِ فِي الضُّحَى وَرَأَيْتـُهُ فِي وَجْنـــتَيْكِ

لَكِنْ وَجَدْتُكِ فِي المِسَاءِ وَ ضَعْتِ رَأْسَكْ فِي يَدَيْكِ

وَ جلَسَتْ فِي عَيْنَيْكِ أَلْغَازٌ وَ فِي النَفْسِ اكْتِئَابْ

مِثْلَ اكْتِئَابِ العَاشِقِينْ

سَلْمَى...بِمَاذَا تُفَكِّرِينْ

*** *** ***

5-بِالأَرْضِ كَيْفَ هَوَتْ عُرُوشُ النُّورِ عَنْ هَضَبَاتِهَا

أَمْ بِالبرُّوجِ الخُضْرِ سَادَ الصَّمْتُ فِي جَنَبَـــاتِهَا

أَمْ بِالعَصَافِيرِ الَّتِي تَغْـــدُو إِلَى وَكَنَـــاتِهَا

أَمْ بِالمَسَا؟ إِنَّ المَسَا يُخْفِي المِدَائِنَ وَ القُرَى

وَ الكُوخُ كالصَّرْحِ المِكِينْ

وَ الشَّوكُ مِثْلَ اليَاسَمِينْ

*** *** ***

6-لَا فَرْقَ عِنْدَ اللَّيْلِ بَيْنَ النَّهْرِ وَ المِسْتَنْقَعْ

يُخْفِي ابْتِسَامَاتِ الطُّرُوبَ كَأدْمُعِ المتَوَجِّعْ

إِنَّ الجَمَالَ يَغِيبُ قَبْلَ القُبْحِ تَحْتَ البُرْقُعْ

لَكِنْ لِمَاذَا تَجْزَعِينَ عَلَى النَّهَارِ؟ وَ لِلدُّجَى

أحْلَامُهُ وَ رَغَائِبُهْ

وَ سَمَاؤُهُ وَ كَوَاكِبُهْ

*** *** ***

7-إِنْ كَانَ قَدْ سَتَرَ البِلَادَ سُهُولَهَا وَ وُعُورَهَـا

لَمْ يَسْلِبْ الزَّهْرَ الأَرِيجَ وَ لَا المِيَاهَ خَرِيرَهَـا

كَلَّا ! وَ لَا مَنَعَ النّسَائِمَ فِي الفَضَاءِ مَسِيرَهَا

مَازَالَ فِي الوَرَقِ الحَفِيفُ وَ فِي الصِّبَا أَنْفَاسُهَا

وَ العَنْدَلِيبُ صُدَاحُهْ

لَا ظُـفْرُهُ وَ جَنَاحُهْ

*** *** ***

8-فَاصْغِي إلَى صَوْتِ الجَدَاوِلِ جَارِيَاتٍ فِي السُّفُوحِ

وَاسْتَنْشِقِي الأَزْهَارَ فِي الجِنَّاتِ مَا دَامَتْ تَفـــوُحْ

وَ تَـمَتَّعِي بِالشُّهْبِ فِي الأَفْلَاكِ مَا دَامَتْ تَلُـــوحْ

مِنْ قِبَلْ أنْ يَأْتِي زَمَانٌ كَالضَّبَـابِ أَوْ الــدُّخَّانْ

لَا تُبْصِرِينَ بِهِ الغَدِيرْ

وَ لاَ يَلِدُّ لَكِ الخَرِيرْ

*** *** ***

9-لِتَكُنْ حَيَاتُكِ كُلُّهَـــا أمَلًا جَمِـــيلًا طَيِّبًا

وَ لِتَمْلَأْ الأحْلَامُ نَفْسَكِ فِي الكُهُولَة وَ الصِّبَا

مِثْلَ الكَوَاكِبُ فِي السَّمَاءِ وَ كَالأَزْهَارِ فِي ذاتِهِ

أَزْهَارُهُ لَا تَذْبُلْ

وَ نُجُومُهُ لَا تَأْفَلْ

*** *** ***

10-مَاتَ النَّهَارُ ابْنُ الصَّباحِ فَلَا تَقُولِي: كَيْفَ مَاتْ؟

إنَّ التّـــأَمُّلَ فِي الحَيَـــاةِ يَزِيدُ آلَامَ الحَـــيَـاةْ

فَدَعِي الكَآبَةَ وَ الأَسَى وَاسْتَرْجِعِي مَرَحَ الحَيَـــاةْ

قَدْ كَانَ وَجْهُكِ فِي الضُّحَى مِثْلَ الضُّحَى مُتَهَلِّلَا

فِيهِ البَشَاشَةُ وَ البَهَاءْ

لِيَكُنْ كَذَلِكَ فِي المِسَاءْ.

*** *** ***

ايليا أبو ماضي : الديوان، قصيدة المساء، دار الفكر العربي، ط 1، 1999، ص 411-412-413.

* المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لقصيدة المساء*

الدراسة الأدبية:

الجو العام للقصيدة:

يستهل إيليا أبو ماضي قصيدته بوصف الطبيعة في السحب المتراكضة المولية، والشمس الصفراء الشّاحبة، و البحر الخاشع الهادر ليسأل تلك الفتاة أفكارها، و أحلاما، و هو لا يدعها تجيب، فيخيل إليه أنّها تجيبه عن طريق التخمين، فيخيل غليه حينًا أنّها تفكّر في الماضي، في الطّفولة الماضية والعمر الّذي انقضى، و تفكّر حينًا سقوط اللّيل و إطفائه لأحداق النّجوم أي بالهرم الفاقد الأمل، المرتدي ظلمة اليأس، تلك الهواجس الّتي تتراءى في ناظريها، تطالع الشّاعر عن واقعها الحزين لأنّه طالما شاهدها متألّقة مثل شعاع الضّحى، حُسنًا و عافية، وتفاؤلًا، إلّا أنّها إذا واجهت المساء ألقت رأسَها في يدها، واجمة مفكّرة بادية الحيرة على وجهها، و الكآبة في نفسها[1]

لماذا الحيرة و التّفكير و علامات البؤس؟

ربّما التّفكير في الظلمة الّتي بدّدت النّور و أسقطته عن عرش النّهار أنّها تفكر في المروح الّتي كستها الظّلمة بالسّكون، أو بالعصافير الّتي تسرع إلى أوكارها، و لعلّها تفكّر في المساء الّذي يطبق على كلّ شيء فيغشى المدن الكبيرة كالقرى و الأكواخ الحقيرة كالقصر الهائل المكين، و الشّوك المؤذّي كالياسمين الوادع اللّطيف، فاللّيل هو رسول المساواة المطلقة، يوجد بين النّهر و المستنقع و البسمة، و الدّمعة، و يطمس معالم الجمال و يسائلها الشّاعر هنا:

لِمَ تَجْزَعِينَ عَلَى النَّهَارِ، وَ لِمَ تَفْقِدِينَهُ وَ تَبْكِينَ عَلَيْهِ؟

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، دار الكتاب للنشر، بيروت، ط 1، 1990، ص 236.

فاللّيل مثل النّهار، له أحلام يحملها و رغائب يتوق إلَيها و له كالنّهار سماء تضيئها النّجوم و إن لم يضئها شمس النّهار، المتألقة، فهو يغشى ظاهرة الأشياء و لا يزيل معالمها، يخفي السّهول و الأودية، و لا يمنع الزّهر من بث عطره و السحر يرسل الحفيف و الأطيار تُغنّي[1].

و هنا و قد غمرت السكينة أحضان الطبيعة يدعوها إلى التّنصّت لتسمع صوت الجداول الّني مازالت تتابع سيرها في سفوح الجبال، و إلى التّمتّع بأريج الزّهر قبل أن يذبل، و يغشاه اصفرار الزّوال، و الاستئناس بالنّجوم مادامت تلمع بالأفق إذ قد يجيء زمن الضباب و الدّخان فيغشاها و يخفي معالمها.[2]

ثمّ يدعوها دعوة التفاؤل و يطلب منها أن تقيم على بشرها في أطور حياتها جميعًا، تنعم بنعيم الحبّ الّذي لا تذبل أزهاره و لا تغيب نجومه، فلتحيا حياتنا بدلًا من أن نفكر فيها، و لتفرح بالصّباح و النّهار و المساء، و لتقبل بواقع الوجود فتظلّ نفسها فَتِيّةٍ ضاحكة فصول عمرها جميعًا.

[1] إيليا الحاوي : إيليا أبو ماضي شاعر التّساؤل و التّفاؤل، دار الكتاب اللّبناني في بيروت، ط 3، ص 112.
[2] المرجع نفسه: ص 113.

المضمون:

قد يقسم مضمون هذه القصيدة، تسهيلًا للدّراسة على الشّكل التّالي:

1-وصف الفتاة و همومها من خلال الطبيعة

وصف السّحب المتراكضة في الأفق و الشّمس الّتي غشيها اصفرار الغروب و البحر الهادئ و هي الفتاة تبدو واجفة وجلة، مفكّرة حائرة و يقرن الشاعر بين واقع النفس و واقع الطّبيعة عاكسًا أحدهما في الآخر و ذكره للغيوم، و لجّ به من العالم الخارجي في الطّبيعة، إلى العالم الدّاخلي في نفس الفتاة فالغيوم المتراكضة تنّم عن مكفهرٌّ عن تلبد الأفق بالوحشة، كما أنّ الشّمس صفراء عاصبة الجبين بمنديل من الشّحوب و الكآبة و البحر زاهد، وهي مظاهر ذات وقع معيّن في النّفس توحي بتبدّل الحياة، فكأنّ الطبيعة ذاتها معاناة ندم و قنوط و أحوال التغيير و المصير، فقد تفطّن الشاعر إلى أنّ ثمّة ناموس ينظم الكون كلّه من الطبيعة الجامدة على البشرية الواعية العاقلة.

فالشّمس ترمز إلى الحياة والعمر فبعد أن كان متألّقًا مثّلها بأضواء الأمل و التّفاؤل و السّعادة، فالبحر كفّى عن الحركة كأنّه ملّ فمال إلى نوع من الهدوءو الشّبيه بهدوء اليأس و التّجمّد كأنّما يتأمّل نهاية الأشياء كالزّهاد[1].

فتاة الشاعر رومانسية تتنصّت لوقع أقدام الحياة و تنظر في الطّبيعة أي في صفحة الوجود تطالع فيها معًا في الشوّم و الزّوال و نذر التّغيير و الهلاك و الرومانسيون هم أبناء الطبيعة يقرأون فيها كتاب الوجود غير متفائلين عنالمقبل بالحاضر، وعن نهاية الأشياء، ببدايتها أو بما بين البداية و النهاية[2].

2-بواعث همومها ومظاهرها.

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 238.

[2] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 116.

يتساءل الشاعر بقوله: أَرَأَيْتَ أَحْلَامَ الطُّفُولَةِ تَخْتَفِي خَلْفَ التُّخُومِ[1].

يرضى الرومانسيون بالحنين لأنّه عودةً إلى عهد الطّفولة، و المفعم بالأحلام ففيه يحي الإنسان و لا يتفكّرها، ينظر إليها من خلال غلالة الوهم والشّعور فيفرح قبل أن يواجه واقع المجتمع، أي حدود الحلال و الحرام، و العقل الّذي يسعى إلى تفهّم الأشياء، بدلًا من معايشتها، و قبل أن يعي وعيه حتمية التغيير و دوامته الأزلية الّتي بالمرء من الطّفولة إلى الكهولة و الهرم أي من الحياة إلى الموت.

إدراك فاجعة الفتاة ينطلق من كون أحلام الطّفولة قد تختفي خلف التّخوم، إذا سقطت تحت وطأة الحياة من نعيم الحلم إلى قساوة الحياة وبدلًا من أن يعانق الحياة بالنّشوة، جعلت تتوجّس منها و تطغي عليها همومها. فتولّت الأحلام و أمست كذكرى جميلة في النّفس لا مفرّ لها في عالم النّفس و بين أحضان الحياة فتعاني الفشل و الفراق بعد أن تهاجر من العالم الجميل.

أَمْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكِ أَشْبَاحَ الكُهُولَةِ فِي الغُيُومْ[2].

يزاوج بين الهموم و الغيوم إذ تطالعه فيها صورة الكهولة المشرفة بالمرء على الهموم، فالشمس الشّاحبة القانطة بين جحافل الغيوم تقابل الكهولة و الشمس السّاطعة و الأفق الجلي تقابلان الطّفولة و الصّبي في ذهنه لا تعاني همّ أو فراق حبيب و إنّما شعورها بالعبودية و الأسر في حتمية الزّوال[3].

العادي يرى الغيوم في الواقع غيومًا أمّا الرومانسي يبصرها همومًا أو يطالعها كهولة و هرمًا فنرى الفتاة تتوقع الشّؤم و توجب قدوم اللّيل، خائفةً أن يقبل 'عليها منطفئ الأحداق بلا نجوم.

أَمْ خِفْتِ أَنْ يَأْتِي الدُّجَى الجَانِي وَ لَا تَأْتِي النُّجُومْ.

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 293.
[2] ديوان الجداول: ص 57.
[3] إيليا الحاوي: شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 117.

فحالة اليأس تخشى الدّجى (الهرم) الّذي لا تتلألأ فيه نجوم الأمل فهي تتفكّر ذاتها مع الحياة وتفتقد الرّجاء و الخلاص كجدران قاتمة[1].

3- العمر بصباحه و مسائه:

يقابل الشاعر بينما كانت عليه، و ما هي عليه الآن:

هَذِي الهَوَاجِسْ لَمْ تَكُنْ مَرْسُومَةٌ فِي مُقْلَتَيْكِ

فَلَقَدْ رَأَيْتُكِ فِي الضُّحَى وَ رَأَيْتُهُ فِي وَجْنَتَيْكِ

مِثْلَ اكْتِئَابِ العَاشِقِينْ

سَلْمَى...بِمَاذَا تُفَكِّرِينْ[2]

في عهدها كانت متألقة كالفجر في وجها تنعكس علامات الحبور و الإقبال و التفاؤل إلّا أنّها حينما واجهت المساء، أي الكهولة عزّتها الهواجس فانحنت مفكرة حائرة، ماذا يعني كلّ ذلك؟ يستلزم أن يكون سعيدًا بحاضره كما هو لا يفكر في المستقبل لأنّه واحد متماثل، هو غدُ الموت.

سَلْمَى بِمَاذَا تُفكِّرِينْ؟.

أدرك أنّها تفكّر بنهاية مآلها، و هو مقطع يشتمل على صورتين متناقضتين صورة فتاة جميلة في مقتبل عمرها يسطع فيها الحسن، و صورة امرأة كهلة باهتة العينين، و هما مرحلتين من مراحل النّهار[3].

هناك مرحلتين من مراحل الزمن –الضّحى و المساء- فحياة الإنسان كحياة النّهار أي كما رسمها "شارل بودلير" في قصيدته " التمثال" وهو تمثال امرأة ذو وجهين أحدهما ضاحك آنس مستأنس

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 240.

[2] إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، قصيدة " المساء"، دار العلم للملايين، ط 6، سنة 1984، ص 58.

[3] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 119.

و الآخر حزين عابس، و قد يسأل الشاعر التمثال عن سرّ بكاء المرأة فأجاب أنّها تبكي لأنّها أحسّت بالهرم فتجيب سلمى بما أجاب التمثال" إنّي أضع رأسي بين يدي و أجلس و في ألغاز لأنّني لا أفهم سرّ حياتي و غايتي، و لأنّني خائفة وجلة مما يقبل به على الغد"[1].

ثم لا يدعها تجيب ليجيب ذاته متسائلًا:

بِالأَرْضِ كَيْفَ هَوَتْ عُرُوشُ النُّورِ عَنْ هَضَبَاتِهَا

أَمْ بِالمرُوجِ الخُضْرِ، سَادَ الصَّمْتُ فِي جَنَبَاتِهَا

أَمْ بِالمِسَا؟[2]

مثل الشاعر عرشا و كأنّه ملك يشمخ بكبريائه وكأنّ الأرض مزهوّة حتّى إذاقدم المساء انهار كلّ شيء و الصّورة عميقة الإيحاء لا حدّ لها و هي توهّم أنّ مهرجان الضّياء قد انتهى، و انقضى عهد ملك عظيم تناثرت أشلاؤه، وهي صورة أعمق بعدًا في وجدان الشاعر، فعروش النّور ترمز إلى زهرة الشّباب و مجده عرش العافية و التفاؤل و القوة حتّى إذا راحت السّاعة ألقت الإنسان ذاته مفجوعًا بفاجعة من يفقد عرشًا ينعم به، كان الشّباب فرحًا بذاته في أرجاء الطبيعة و غشيها بعد ذلك صوت العدم و لم يعد للعصافير رقص و طرب خشية لحاق جحافل اللّيل و بعد أن تساءل الشاعر أم بالحشا تبدّلت الحالة النفسية و غدت إيجابيّة تكشف عن حكمة الحياة و أسرارها الهاجعة[3].

أَمْ بالمِسَا؟ إِنّ المِسَا يَخْفِي المِدَائِنَ وَ القُرَى

وَ الكُوخُ كَالصَّرْحِ المكِينْ

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 241.

[2] إيليا أبو ماضي: الديوان، قصيدة "المساء"، ص 412.

[3] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 121.

وَ الشَّوْكُ مِثْلَ اليَاسَمِينْ[1]

يعزّي الشاعر الفتاة بأنّ المساء ناموس الطّبيعة تتساوى بين يديه الأشياء عزّ المساواة، فالمساء لا يفرّق بين مدينة و قرية متواضعة و ترمز كليهما إلى القويّ الثّري و الضّعيف الفقير مثل الكوخ و الصّرح المكين، فالأول يرمز إلى الصّغر و الهوان و الثاني إلى القوة و التفوّق، والمساء يلمّ بالشّوك و الياسمين بالقبح و الجمال بالخير و الشّر و لعلّ النابغة أشار إلى مثل ذلك بقوله:

وَ إِنَّكَ كَاللَّيْلِ الّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَ إِنْ خِلْتَ أَنَّ عَنْكَ وَاسِعٌ[2].

4- إظهار فضائل اللّيل:

فالمساء أو اللّيل يَجُنُّها هي وحدها و لا إرادة نافذة لها عليه، و لا قبل لها بتعديل أمره أو تبديله و لا مندوحة لها إلّا أن تقبل به، متعزّية بأنّها تتقبل المصير الّذي يعانيه سائر النّاس. فماذا يعني مساواة اللّيل بين النّهر و المستنقع و الفرح و القرح و الجمال و القبح؟ إنَّها تعني السّلام و الهدوء، و السّكينة إذ يدرك المرء أن يتفاضل به أنباء النّهار لا وجود له في أحضان اللّيل، و كأنّها دعوة إلى الاتّعاظ فيتساوى في ظلمته القوي و الفقير، و العظيم و الحقير، الشّوك الكوخ و القصر تلك هي فضيلة اللّيل[3].

إِنْ كَانَ قَدْ سَتَرَ البِلَادَ سُهُولُهَا وَ وُعُورُهَا

لَمْ يَسْلُبْ الزَّهْرَ الأَرِيجَ وَ لَا المِيَاهَ خَرِيرُهَا

كَلَّا وَ مَا مَنَعَ النَّسَائِمَ فِي الفَضَاءِ مَصِيرُهَا[4].

[1] إيليا أبو ماضي، الديوان، قصيدة "المساء"، ص 412.

[2] النابغة الذبياني: الديوان، قصيدة "وعيد أبي"، قاموس شرح عباس عبد الستار دار الكتب العلمية بيروت، ط 3، ص 56.

[3] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 242.

[4] إيليا أبو ماضي: الديوان، قصيدة المساء، ص 412.

فالليل يقضي على الظاهر المتألّق من الأشياء لكنّه لا يأتي عليها و لا يقضي على حقيقتها و جوهرها. فإذا لم نشاهد الزّهر فإنّنا نستنشق عبيره، فبدلًا من حدقه البصر نبصر بحدقة النفس فالهرم قد يأتي على جمال النفس لكنّه يخمد جدوة الخير فيه و أريج المحبّة، و عبر مظاهر الهرم الّذي تجلّله تبقى إنسانيته كشذا لطيف ينتشر منه إلى الآخرين، كما ينتشر شذا اللّيل من الأزهار.

و كذلك المياه فهي لا تزال ترسل ترنيمة الخرير، فاللّيل يسلب الأشياء مظاهرها دون جوهرها و ذاك كلّه يطلعنا على حكمة الحياة. فالنّهار نعمة و اللّيل ليس نقمة فكلاهما يأتي بالخير. و الإنسان العاقل هو الذي يتفطّن إلى أسرار الطّبيعة"لذا نرى الشاعر يعزّي الفتاة من يأس الوجود و كلّ ذلك سبيل لإقناعها، و هنا نبرز النزعة التفاؤلية في شعر أبي ماضي، بخلاف الكثير من الرومانسيين اللّذين يجدون العالم رعبًا و هلاكًا"[1].

5- الدّعوة إلى التّمتّع بمباهج الحياة قبل الهرم.

ثم يعتمد أبو ماضي إلى دعوة الفتاة أن تتمتّع بمباهج الحياة قبل أن نهرم و نندم على ما فات.

فَاصْغِي إلَى صَوْتِ الجَدَاوِلِ جَارِيَاتٍ فِي السُّفُوح

وَ اسْتَنْشِقِي الأَزْهَارَ فِي الجَنَّاتِ مَا دَامَتْ تَفُوح

وَ تَمَتَّعِي بِالشُّهْبِ فِي الأَفْلَاكِ مَا دَامَتْ تَلُوح

مِنْ قَبْلْ أَنْ يَأْتِي زَمَانٌ كَالضّبَابِ أَوِ الدُّخَّان[2]

نعم هي دعوة رائعة إلى أن تنصت لخرير المياه، و هي في ظاهرها رومانسية شعرية إذ إنّ خرير الجداول لا يجدي من يصغي إليه، و لا يمنحه رزقا و لا يعيد له شباباً أو عافية.

[1] إيليا الحاوي إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 124.

[2] إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، قصيدة "المساء" ، ص 60.

و رغم ذلك فإنّه يشكّل الحياة فالرومانسي يعانق الطبيعة بروحه و يعظم ما لا عظمة له بالنسبة للإنسان العادي، فهو يحضنها على مشاهدة وجه الخير في الوجود. فالوجود جميل، ضاحك مترنّم و ذكره للأزهار و الشّهب كلّ فيه رمز إلى الجمال، و الشّهب عين العناية الإلهية تبثّها في ظلمة اللّيل لتوحي لنا بأنّ اللّه لا يدعنا في الظلمة المطبقة. بل إنّه يعدنا بصباح الضوء الساطع، و يدعوها إلى أن تحيا الحاضر، و لا تفكر في الغد لأنّه يغشاه الضّباب أو الدّخّان.

فالتّجربة تتصل ظاهرًا بالنّفس و الطبيعة، فتعبّر عن الزّمن و تطوّره و تروّعه بالإنسان من نعيم الحياة إلى جحيم الهرم، ومادام التغيير محتّما كتعبير عن حركة الزّمن، فإنّه يعتري المرء بالهموم، إذ يبصر غده في حاضره، و يحيا في خاطره معافيا عن الفرح بيومه المعافي الجميل[1].

6- الدعوة إلى الفرح و الاستبشار.

يدعو الشاعر في آخر قصيدته إلى التفاؤل و الامتناع عن اليأس، إذ نراه يحثها على معانقة الأحلام و الأمل و أن تبدع من نفسها عالما آخر، وهي دعوة تعزية شعرية، فالزهور و النجوم الّتي يحتضنها الإنسان في نفسه ليست سوى نجوم رومنسية، و الإنسان المهموم قلّما يطيب له أن يلهو بملذّات الحياة.

لِتَكُنْ حَيَاتُكَ كُلُّهَا أَمَلًا جَمِيلًا طَيِّبَا

وَ لِتَمْلَأْ الأَحْلَامَ نَفْسَكِ فِي الكُهُولَةِ وَ الصِّبَا

لِيَكُنْ بِأَمْرِ الحُبِّ قَلْبُكِ عَالِمًا فِي ذَاتِهِ[2]

[1] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 126.

[2] إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، قصيدة "المساء"، ص 61.

و إذا كان الشاعر حرًّا في رؤياه للأشياء، فهو لا شك واقف أمام الحقيقة النهائية الفعلية. فالمرء لا ينتصر على الموت بالأحلام و الأوهام، و هو مسيّر بمصيره المحتوم، لا ينجيه منه إلّا إيمانه باللّه يقول:

مَاتَ النَّهَارُ ابْنُ الصَّبَاحِ، فَلَا تَقُولِي كَيْفَ مَاتْ

إنَّ التَّأَمّلَ فِي الحَيَاةِ يَزِيدُ أَوْجَاعَ الحَيَاةْ

فَدَعِي الكَآبَةَ وَ الأسَى وَ اسْتَرْجِعِي مَرَحَ الفَتَاةْ[1]

فالصباح يولد ليموت و هكذا فإن التفكير يؤذي إلى تتضاعف الآلام لذلك فالتنعم بالحياة جميل و من هذا يظهر أنّ أبا ماضي شاعر متفائل و شعره أدنى إلى التأملات الّتي تتهافت عندما نسلط عليها أضواء الحقيقة، و هو يطعم الإنسان خبز التفاؤل[2].

قَدْ كَانَ وَجْهُكِ فِي الضُّحَى مِثْلَ الضُّحَى مُتَهَلِّلَا

فِيهِ البَشَاشَةُ وَ البَهَاءْ

لِيَكُنْ كَذَلِكَ فِي المِسَاءْ[3]

[1] المصدر نفسه، ص 61.

[2] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 243.

[3] إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، قصيدة "المساء"، ص 62.

الدراسة البلاغية:

أ -الخيال:

يؤدي الخيال في الانفعال و العقل إلى صورة نفسية و حسية فيؤدّي بها إلى العالم الخارجي و يوقعه تحت وطأته فيجعل صورًا تختفي و تتلاشى، وتصبح عارية غير موجودة في العالم القاسي و المؤلم[1].

فتغدو الحياة أبغض صاحبها. و هكذا يلجأ إلى الخيال. و كما قال "كولوريدج" "شعر يصدر عن الخيال يخلع فيه الشاعر عاطفته و روحه على موضوع قصيدته فإذا هو شعر موحّد الفكر و الصورة و الإحساس و إذا العمل ألقي تصوير لموقف نفسي موحّد أو للحصّة الشعورية ذات المغزى فنجد الشاعر فيها مصبوغًا يلون نفسه لحظة غروب الشمس مثلا" [2]. كما صورها إيليا أبو ماضي في قصيدته "المساء"، فهو لم يفكر لحظة في أن ينقل إلينا مشهد الغروب المتقطعة المتناثرة في الأفق، و هذه الشمس المخيفة وراء هذه القطع المتناثرة من الشهب، و هذا البحر الممتد أمام الشاعر قد حملت في طيّاتها ألوانا نفسية معيّنة و ذلك ما أضفاه الشاعر عليها من إحساس داخلي، فالشهب ليست عادية، و لكنّها سحب الخائفين، والشمس تغيّرت أصبحت صفراء عاصبة الجبين من الذبول و المرض و البحر عاكف صامت في حالة الخشوع و الزهد ثم إنّ هناك عينان باهتتان في الأفق في حال من الشّرود و ضياع الأمل، فمن يستطيع أن يزعم هذه الصورة عند القراءة تصوير لحالة الغروب كما نشاهد في الواقع.

و هكذا فإن الخيال توهم صورة متفرقة و متفككة من جزيئات بإرادة لا عاطفة فيها، تنفصل الصورة عن الأخرى و تستقل بنفسها و براعة الشاعر ومهارته في مثل هذا اللون من الشعر لا تتعدّى ما يقدّمه قانون تداعي المعاني و ما تسعفه الذاكرة، حيث يستدعي الشبيه شبيهه إلى

---

[1] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، دار الكتاب اللبناني، ط 3، ص 130.

[2] محمد زكي العشماوي: فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة العربية، ط 1981، ص 113.

الذّهن، و يرتبط في الذّهن بالشّيء الآخر، فإذا عرض الشاعر أحدهما وثب الآخر إلى ذهنه فورًا و ليت مهمتي أن استكشف ما انعكس على هذه الظاهرة الطبيعة من موقف الشاعر روايته للغروب و إن كان للخيال أثر في هذا الشعر الرومانسي الّذي أجاد توظيفه الشعراء الرومانسيون إذ أنّهم طاروا بالمعاني إلى ما وراء الواقع إلى الخيال[1].

ب–الاستعارة:

من غير الصعب أن نحمل صورة قصيدة "المساء" على محمل الاستعارة و هي استعارات ذات الطابع الخاص، "فهي الشمس العاصبة الجبين" استعارة مشهد المرأة الحزينة المعصوبة الجبين بعصبة السواد متكنّيا عن الحزن و الأسى، و في "أشباح الكهولة" استعارة للهموم صورة الشبح، و صور العرش للنور.

لقد أبصر في حدود خيال مبدع كاشف لعلاقات غامضة بين أحوال النفس و طبائع المظاهر الخارجية، و بذلك استحالت الاستعارة إلى رؤيا تقبض على أحوال الحقائق، و قد تجلّى ذلك خاصة في صورة العرش الّتي نماها إلى النور مشتقا من خلال معنى الكبرياء[2].

و هكذا فإنّ الحديث عن الصورة النفسية الّتي لا وجود لها في الواقع، فسنعير المظاهر الخارجية مشهدًا بالحسّ و الرّؤيا، فيبصر من خلال وجود لها في الواقع من خلال عواطفه و معاناته هذه الصورة تفيض عن الخيال المبدع.[3]

" و الشمس تبدوا خلفها صفراء عاصبة الجبين" الّتي لا وجود لها فعليّا، ابتدعها الشاعر بخلق من لدنه، و هي أعمق إيحاء من الشمس الساطعة، فاستعار الشمس لأنّها رمز الحياة، و جعل لها

[1] محمد زكي العشماوي: فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة العربية، ط 1981، ص 113.
[2] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، دار الكتاب للنشر، ط 1، ص 252.
[3] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 134.

عصابة، فهي، فهي صورة ليست نقلية، بل تجسيدية أدركها الخيال، و هداه الانفعال المرتبط بوشائح حميمية مع مظاهر العالم الخارجي.

"بالأرض هوت عروش النور عن هضباتها" وليس للنور عرش، و إنّما الشاعر هو الّذي اشتق ذلك شعوره بأن مظهر النور يوحي بالكبرياء.

"أمر الحب" استعارة مكنية، حيث جعل الحب انسانا يتكلم بأمر و يطاع، و حذف الإنسان و أتى بكلمة أمر، و فيها تشخيص و إيحاء بسيطرة الحب.

و القصيدة مليئة بالاستعارات لا يمكننا حصرها في الأمثلة السابقة فهي من أولها حتّى آخرها عبارة عن تصورات و استعارات.

ج–التشبيه:

تنوعت التشبيهات في هذه القصيدة، ما بين تشبيه بليغ و تمثيلي و غيرها مما جعلها تبعث في المعنى جمالًا و حسّا نعيما يثير في النفس تشبيهات حسية تنطوي على الاستطلاع.

"السحب تركض في الفضاء ركض الخائفين" كان يركض خائفًا شبه السحب في عدوها ووجه الشبه تعليلي أضفى على السحب صفة تماثل صفة الإنسان لنزوعه في تأويلها منزعًا نفسيّا.

" الشوك مثل الياسمين" بمعنى العطف بعبارة أدنى إلى العامية و مضمون عميق جميل من ناحية التوحيد بين مصير الشوك و الياسمين.

" و لتملأ الأحلام نفسك في الكهولة و الصّبا" مثل "الكواكب في السماء و كالأزهار في الرّبى" تشبيه تمثيلي حيث شبّه نفس سلمى المليئة بالأحلام بامتلاء الشيء بالكواكب و الرّبى بالزّهور و كل ذلك يوحي بالتفاؤل و السعادة "كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهلّلا" حيث شبه الشاعر وجه سلمى في حيويته و إشراقه و جماله و هي صغيرة السن بالضّحى المشرق الجميل و توحي بالجمال و الإشراق.

" و جلس في عينيك ألغاز و في النفس اكتئاب مثل اكتئاب العاشقين" و هذه كلّها تشبيهات تفيد الإيحاء لا المقابلة، و الإبانة بإيراد الشبه به نفسيا أو كناية ترمز إلى حالة نفسية و إضفاء المشبه عمقا، و يقتصر على الرّمز من دون المقابلة أو التأويل[1].

المحسنات البديعية:

لم يتكلف الشاعر في استخدام البديع، فنجد مثلًا:

الطباق في قوله: الكآبة=/ الفرح، تأت=/ لا تأتي

و الترادف في قوله: ساج، صامت، خشوع.

و الغرض منن هذا ابراز المعنى و توكيده.

الأسلوب:

نوّع الشاعر في استخدامه للأساليب الإنشائية، فالجمل الخبرية استخدمها الشاعر لإظهار حالة الحزن و الألم و التشاؤم، و أمّا الأساليب الإنشائية استخدمها بغرض لفت الانتباه و التعجب و الاستنكار و النصح، و الدعوة للتفاؤل و التمتع بالحياة و جمالها ومن ذلك:

الاستفهام : و هو حركة بيانية تعبر عن واقع نفسي أو فكري ينمّ عن اللّبس و الحيرة، أو عن الإلحاح مصبوغا بطبيعة التجربة الّتي عاناها، و هي أساليب أساسية فاضت عن النفس البشرية المتقلبة بين أحوال شتّى في الوجود و حاول الشاعر هنا أن يسأل و يجيب في الوقت ذاته، و هي كانا أداة لتمثيل آرائه و التعبير عنها كالاستفهامات التالية :

[1] إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، ص 243.

"سلمى بماذا تفكرين؟ سلمى بماذا تحلمين؟ و جاء هذا التساؤل كنتيجة للأفكار التي ذكرها و قد فصح عن الحيرة الّتي تنتابه، و عن إغراق تلك الفتاة في الهموم "أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التخوم؟".

استفهام من خلال همزة تفصيلية تجسد الحيرة و الظّن أم أبصرت عيناك ....أم خفت؟.

و هذا الاستفهام أدّى بالقصيدة من أسلوب العرض و التقرير إلى أسلوب التساؤل الّذي يضاعف المعنى في النفس، و تكرر الاستفهام، وهو نوع جميل للحصول على انتباه القارئ و نفسه في ذات الوقت[1].

الأمر و التقرير: أكثر الشاعر من هذين الصيغتين عندما مال إلى النزعة التفاؤلية، و عندما تحول من التساؤل إلى الإرشاد و التعليم و نراها في قوله:

فاصغي إلى صوت الجداول، **واستنشقي** الأزهار، و **تمتّعي** بالشّهب، **لتكن** حياتك كلّها أملا جميلا طيّبا، **فلا تقولي** كيف مات

أمّا بالنسبة للتقرير فهو تبير يخفت في الانفعال، و يتجول الأسلوب إلى نوع من العرض للوقائع كقوله:

أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد إنّما

أظلالها في ناظريك

تنمّ يا سلمى عليك[2].

[1] إيليا الحاوي: إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، ص 138.

[2] إيليا أبو ماضي: الديوان، قصيدة "المساء"، ص 411.

الرّمز و الإيحاء:

من الطبيعي جدّا أن نجد الرمز و الإيحاء في شعر إيليا أبو ماضي كشاعر حالم وجد في الحياة ملاذه، فهو يرمز بالمساء و الدجى للفترة الأخيرة من حياة الإنسان، و بالصباح لفترة الطفولة و بالنّهار و الضّحى لفترة الشباب كما يرمز بسلمى للبشرية المضطربة القلقة.

فإيليا أبو ماضي شاعر عقلاني يستطلع الحقائق بالتّأمل و التقصّي و تجسّد أدوات التساؤل و الاستفهام للإيحاء بالعديد من المعاني الّتي قد تكون غائبة في الأذهان و لا تخطر على البال و ذلك لأنّ أكثر الرموز تختلف فيستعمل الرمز الطبيعي للتعبير عن دلالات تجربتهم باستبطان طاقات هذا الرّمز، و شحنه بحمولات شعورية و فكرية، و ارتباط الرّمز الطبيعي برمز خاص، و لهذا فإنّ إيليا أبو ماضي في شعره، المعنى أعمق من أن يكون سطحيّا، يصل إلى درجة الرمز في التعبير و الإيحاء.

و هذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على براعته كشاعر و فنّان له غايته[1]

[1] محمد رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب اللبناني للنشر، ط 1، ص 282.

الدراسة الصوتية:

تمثّل البنية الصوتية دورًا أساسيا في الخطاب الشعري، و يعكس هذه القيمة العناية الكبيرة الّتي توليها البحوث الأسلوبية لها، حيث يكشف التحليل الأسلوبي في مقاربته الصوتية على نتائج مثيرة تظهر فيما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر ممّا يثيره أيضا بنا الكلمات كمعاني، و هذا التكشف للمعنى الّذي نشعر به في أي قصيدة إنّما هو حصيلة بناء الأصوات[1].

لما تقوم به هذه الأصوات من دور في تصوير الانفعالات الإنسانية بصورة إيحائية و بذلك نتوجّه عناية الشاعر بشكل ملفت إلى العناية باختيار ما يلائمه من أصوات تترجم مشاعره "الّتي ترقد تحت البناء الشعري الّذي يبنيه و يعض الخيال ذلك من خلال المساهمة بدور فعّال في عمليات الانتقاء و التأليف[2].

و سنعمد إلى تجلية الصور الصوتية في البناء الشعري عند إيليا أبو ماضي من خلال دراسة صوتية لقصيدة المساء و الّتي نركز فيها على العناصر التالية:

أ–الوزن: ترتبط موسيقى الإطار أو الشكل بالأوزان و القافية، و لا يخفى على أحد ما للموسيقى من سحر على قلوب سامعيها "إنّ استعانة الشعر بالموسيقى الكلامية إنّما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية لأنّ الموسيقى طريق السمو بالأرواح، و التعبير عمّا يعجز التعبير عنه"[3].

وبعد أن قمنا بتقطيع أبيات القصيدة تقطيعًا عروضيا وجدنا أنّها تنتمي إلى البحر الكامل و تفعيلاته هي :

مُتَفَاعِلُنْ– مُتَفَاعِلُنْ– مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ — مُتَفَاعِلُنْ — مُتَفَاعِلُنْ

[1] عدنان حسن قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي دار ابن كثير، ط 1، سنة 1992، ص 166.
[2] المرجع نفسه: ص 164.
[3] محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث دار العودة بيروت، ط 1986، ص 380.

و البحر الكامل كغيره من البحور الخليلية يستعمل تامًا و مجزوءًا و في هذه القصيدة جاء مجزوءًا أي مربع الأجزاء: مُتَفَاعِلُنْ – متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن.

فَلَقَدْ رَأَيْتُكِ فِي الضُّحَى وَ رَأَيْتُهُ فِي وَجْنَتَيْكِ.

فَـلَـقَدْ رَأَيْـتُكِ فِضْضُحىْ | وَ رَأَيْـتُـهُـوْ | فِـيْ وَجْـنَـتَيْـكِـيْ
0 | | 0 | | 0 | | 0 | | 0 | | 0 | | 0 | | 0 | |
مُـتَـفَا عِلُنْ مُـتَـفَـا عِـلُنْ | مُـتَفَا عِـلُـنْ | مُـتَـفَـا عِلَاْ تُـنْ

قد يأتي مجزوء الكامل بإسقاط تفعيلة من الشطرين فيصبح:

مُتَفَاعِلُنْ– متفاعلن– متفاعلن– متفاعلن.

و قد تأتي آخر تفعيلة في البيت " مُتَفَاعِلاَتُنْ أو مُتْفَاعِلَاتُنْ.

كما جاء موصولًا، و الموصول أو المتداخل: هو الذي لا يقرأ على شطرين و نستطيع معرفة سطري البيت الشعري من هذا النوع بواسطة التقطيع العروضي[1]. مثل:

أرأيت أحلام الطفو لة تختفي خلف التخوم

الشطر الأول الشطر الثاني

إضافة إلى ما سبق يمكن أن يلحق هذا البحر زحافات و علل.

أمّا الزحاف: فهو تغيير مختص بثواني الأسباب، قد يقع في جميع أجزاء البيت و هو نوعان:

زحاف مفرد: و هو الّذي يدخل على سبب واحد في التفعيلة الواحدة.

زحاف مزدوج (مركب): و هو الّذي يدخل على سببين في التفعيلة الواحدة [2].

[1] صلاح يوسف عبد القادر: في العروض و الإيقاع الشعري، الأيام و الملكية للطباعة و النشر، ط 1، ص 42.

[2] رضوان محمد النّجّار: الجواهر في البحور و الدّوائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، ط 1، سنة 2000، ص 102.

أمّا العلّة: فهي تغيير يلحق بالأوتاد أو الأسباب أو كليهما معا أينما كان موقعهما في التفعيلة، و هي لا تقع إلّا في أجزاء العروض و الضرب و العلّة قسمان زيادة و نقصان.

فالزحاف في هذه القصيدة دخل على تفعيلة: مُتَفَاعِلُنْ فأصبحت مُتْفَاعِلُنْ و يسمى الاضمار و هو ما سكن ثانيه.

ب–القافية:

القافية ركن من أركان الشعر العربي، و هي لا تقل أثرا على موسيقى الوزن من حيث أهميتها للتصوير الشعري و التشكيل الجمالي، فهي تجعل دلالة صوتية و موسيقية لها علاقة بدلالات النص الشعري في إحداث الأثر الفنّي[1].

و لم يستمر القدماء على تعريف واحد للقافية وذهبوا مذاهب شتّى، ولا تحظى التعاريف الّتي تناولت القافية بقبول واسع عند الدارسين، و بعد تعريف الخليل ابن أحمد الفراهيدي هو الأقرب للدقة و الأكثر قبولا، فهي عنده من آخر حرف في البيت إلى أوّل ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الّذي قبل الساكن، وقد علّق ابن رشيق على التعريف فقال: " والقافية على هذا المذهب–وهو الصحيح– تكون مرة بعض كلمة و مرة كلمة، و مرة كلمتين"[2].

و يعتبر أبو ماضي من المجددين الأوائل في تنويع القافية فبعد تحليل القافية في هذه القصيدة لاحظنا أنّه لم يلتزم بالقافية لأنّ الشاعر قسّم قصيدته إلى مقاطع ونوع في القوافي داخل المقطع الواحد، و لقد أتاح له هذا التنوّع في القوافي و التجديد في الشكل و الحرية في التعبير و العذوبة في الإيقاع الموسيقي. كما يسقط على كاهل الشاعر عباء البحث عن القافية المتمكنة. هو ما يجعله يصبّ جمّ تركيزه في المعنى و ينقل عن القافية و عواطفه دون قيد القافية الموحّدة[3].

---

[1] نور الدين السّد: الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، ج 1، 2007، ص 114.

[2] ابن رشيق: العمدة تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة المصرية بيروت، ط 1، 2001، ج 1، ص 151.

[3] شريف سعد الجبّار: شعر ابراهيم ناجي، دراسة أسلوبية بنائية، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 2008، ص 97.

ج–الرّوي:

و هو الحرف الرّوي الّذي تبنى عليه القصيدة، و يتكرر في آخر أبياتها موصولا إمّا باللين أو الهاء أو ساكنا[1]، و للروي حضوره في الشعر القديم فهو من حدود الشعر الضمنية الّتي ترتفع به شعرية الملفوظ أو تنخفض[2]، و جرت العادة عند العرب أن تنسب القصيدة إلى حرف الروي، فيقال لامية العرب، دالية النابغة..

و هكذا وفي هذه القصيدة قد تنوع حرف الروي من مقطوعة إلى أخرى فتارة نجده "النون"، و تارة "الميم"، ف "القاف.....إلخ.

[1] حسن عبد الجليل يوسف: علم القافية، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط 1، 1998، ص 11.

[2] خميس الورتلاني: الإيقاع في الشعر العربي الحديث، دار الخور للنشر و التوزيع، ط 1، 2005، ص 305.

خـــــاتـــــمة :

بعد الدّراســـــة المتأنيّة للحالة الّتي امتاز بها شعراء المهجر، و على رأسهم إيليا أبو ماضي، ألا وهي طابع التفاؤل الّذي طغى على الكثـــــير من شعره خلـــصنا إلى النتائـــج التّالية:

-إيليا أبـــو مـــاضي شاعر محـبوب و مشـــهور من قبل الكثيـــر من النّاس.

-و بعد الرحلة القصيرة مع الشاعر في محطّات حياته لا بـــدّ لنا من الإشارة إلى المؤثّـــرات الّتي تركتها هذه الهجرة القُسرية في تكوينه النفسي، و في بعث التجربة الشعرية عنده.

-تأثره بالمذهب الرومانسي الغربي يبدو جليّا من خلال أشعاره الممجّدة للطبيعة.

- إيليا أبو ماضي صاحب تجربة و مبدأ في الحياة، و لعلّ ذلك يعود لشخصيتـــــه اللّـــطيفة و روحه المرحة، و حبّه للنّاس و الحياة، وكثرة تأمّلاته، و تعمّقه في فهم النفس البشرية.

-إيليا أبو ماضي بفضل كبريائه، و تصميمه على التّحدّي مكنّه من طرد النزعة التّشاؤمية الّتـي

ألقت بظلالها على الغالبية السّاحقة من النّاس.

-إنّه شاعر يؤمن أنّ السّعادة و الحب، و جميع القيم و الفضائل الإنسانية كامنة في نفوسنا و ما علينا إلّا إيقاظها من غَفوتَها و أنّ ما نراه حولنا ما هو إلّا قشور و أوهام، نطردها متى تسلحنا بالتفاؤل.

-في عرض الشاعر العربي إيليا أبو ماضي من خلال قصيدة "المساء" نجد ما يبرر مدى تأثر الكتّاب و الشعراء العرب بالرومانسية الغربية سواء من حيث الشكل أو المضمون، إذ أنّه منح لعناصر الطبيعة الحق في الحوار و التعبير عن الأشياء الّتي تتّصل به، و تقع في مجال حسّه، وهذا ما زاد القصيدة العربية إثراءا و تنوّعا من حيث الأصوات و الأساليب، و تموج المشاعر و الأفكار.

مجمل القول أنّ النزعة التفاؤلية الّتي طغت على معظم نتاج إيليا أبو ماضي الشعري كانت خلاصة الغوص في رحم المأساة الإنسانية و الخروج برؤى من الطبيعة و الكون.

و رغم كل ما بدلناه من جهد في هذا الشأن كمبتدئين فإنّنا نعترف بعدم استيفاء الموضوع حقّه من البحث و التقصّي، وصدق الشاعر حين قال:

لكل شيء إذا تمّ نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

و على أي حال فإنّ العمل المتواضع قد يعتريه الخطأ و الصّواب، المهم هو صدقنا في النّية و أخلصنا في العمل، فإن وفّقنا فمن اللّه و إن أخطأنا فمن أنفسنا.

قائمة المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

المصـــادر:

إيليا أبو ماضي: الديوان، دار الفكر العربي، ط 1.

إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، دار كاتب و كتاب، ط 1988.

إيليا أبو ماضي: ديوان الجداول، دار العلم للملايين، ط 6، سنة 1984.

إيليا أبو ماضي: ديوان الخمائل، دار كاتب و كتاب، ط 1988.

النابغة الذبياني: ديوان، قاموس شرح عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية بيروت، ط 3.

المـــعاجم:

لسان العرب: لابن منظور دار الكتب العلمية، ط 1، 2005، المجلّد 6.

المـــراجع:

أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم الحديث، دار العلم للملايين، ط 6.

ابن رشيق العمدة: تج عبد الحميد هنداوي، المكتبة المصرية بيروت، ط 1، 2001، ج1.

إيليا الحاوي: الرومانسية في الشعر الغربي و العربي، دار الثقافة، ط 2.

إيليا الحاوي: في الأدب و النقد، دار الكتاب للنشر بيروت، ط1، 1990.

إيليا الحاوي: أبو ماضي شاعر التساؤل و التفاؤل، دار الكتاب اللبناني في بيروت، ط 3.

جورج صيدح: أدبنا و أدباء في المهاجر الأمريكية، ط 3.

حسن عبد الجليل يوسف، علم القافية، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ط1998،1.

خميس الورتلاني، الإيقاع في الشعر العربي الحديث، دار الخور للنشر و التوزيع ط 1، 2005.

زهير مرزا: إيليا أبو ماضي، اليقظة العربية ط 2.

رضوان محمد النّجار: الجوهر في البحور و الدوائر، المكتبة الوطنية الجزائرية ط 1، 2000.

شريف سعد الجبّار: شعر ابراهيم ناجي، دراسة اسلوبية بنائية الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 2008.

شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف بمصر ط 3.

صلاح يوسف عبد القادر: في العروض و الإيقاع الشعري، الأيام و الملكية للطباعة و النشر ط 1.

عدنان حسين قاسم: الاتّجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، دار ابن كثير ط1، 1992.

عبد الرحمان شيبان: المختار في الأدب و النصوص و النقد، الراجع مصلحة الطباعة المعهد التربوي الوطني 1974.

عبد المنعم خفّاجي: قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني ط 1980.

عبد المجيد الحر: إيليا أبو ماضي باعث الأمل و مفجر ينابيع التفاؤل، دار الفكر العربي ط 1، 1995.

عيسى الناعوري: أدب المهجر، دار المعارف ط 3.

عيسى الناعوري: إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث، دار الطباعة و النشر ط 1.

فؤاد يس: الشاعر المهاجر، د ط.

محمد زكي العشماوي: فلسفة الجمال في الفكر المعاصر دار النهضة العربية ط 1981.

محمد رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب اللبناني و النشر ط 1.

محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة بيروت ط 1986.

محمد مصايف: جماعة الديوان في النقد، مطبعة البحث قسنطينة 1974.

مصطفى حجازي: إطلاقات الحياة، قراءات في علم النفس الإيجابي الناشر التنوير ط 2012.

مخائيل نعيمة: صوت العلم، فصل أخوة غرباء، مؤسسة نوفل، بيروت لبنان.

نادرة جميل سراج: دراسات في شعر المهجر لشعراء الرابطة القلمية، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر 1966.

نور الدين السّد: الشعرية العربية، ديوان المطبوعات ج 1، 2005.

الكتب المترجمة:

عبد الوهاب المسيري و محمد علي يزيد، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي المؤسسة العربية للدراسات و النشر ط 1979.

ملـــــــــخّص:

بعد الدراسة المتأنية حول ظاهرة التفاؤل في شعر إيليا أبي خلصنا إلى مايلي:

-إيليا أبو ماضي واحد من أكثر الشعراء تفاؤلاً وهذا من خلال دعوته الشعرية الّتي أصبحت شائعة في العالم العربي، إنّه شاعر يؤمن أنّ السّعادة، الحب و جميع الفضائل موجدة في نفوسنا و ما علينا إلّا إيقاظها، من خلال قصيدة "المساء" نجد ما يبرر مدى تأثر بالرومانسية الغربية، إنّه شاعر ارتبط بالطبيعة ارتباطا وثيقًا.

الكلمات المفتاحية:

إيليا أبو ماضي- شعر- التفاؤل.

Résumé

Apres une prudente étude sur le phénoméne de l'optimism au poésie du Ilya Abou Madi ; on peut sortir avec les points suivants :

-Ilya Abou Madi est un des plus optimistes poètes à travers son invitation poétique qui est , devenues très commun au monde Arabe, il est un poété qui croit que le bonheur ; l'amour et les vertus sont trouvés à nos mêmes et on doit les réveiller, a trouvers son poéme « le soir » on trouve se qui justifie son grand attachement, au romantisme ouestern, il est un poète très connecté à la nature.

Mots Clet :

Ilya Abou Madi-Poésie-Optimism

Summary :

After a carful study about the phenomenon of optimism in Ilya Abou Madi Poems. We deduced the followuing :

- Ilya Abou Madi is one of the most optimistic noets throught his poetic call that be came common in the Arabic world, he is a poet who believes that happiness. Love and evry virtue is found in Owsdves and all we have to do is to waks them up, throught his poim « the evening » we can find what jestifier hour much he is Toudred by western romantiesm, the is a poet with a big connection to nature.

Key Words :

Ilya Abou Madi- Poems-Optimism.